بـلا أجْـنـحَـة

ناجي، مينا
بلا أجنحة / مينا ناجي
روافد للنشر والتوزيع. 2016 ط أولى، القاهرة
124ص ؛ 21 سم
1-رواية 2-العنوان أ – المؤلف
رقم التصنيف: 813. 008
رقم الإيداع: **27661**/2015
الترقيم الدولي I.S.B.N.: 978-977- 751 -194- 0

جميع الحقوق محفوظة للناشر

روافد للنشر والتوزيع
القاهرة – ج م ع
تليفون 01222235071 2+
rwafead@gmail.com
www.rwafead.com

صورة الغلاف للمصور الفرنسي "إليوت إرويت"
تصميم الغلاف: يوسف رخا
مراجعة لغوية: سارة سرحان

بلا أجنحة

رواية

مينا ناجي

((سأنظر فقط إلى أعلى وأقول "من أنا إذن؟" قولوا لي أولًا، وبعدها، لو أعجبني كوني هذا الشخص، سوف أصعد.. لو لا، سأبقى هنا حتى أكون شخصًا آخر.

لكن، يا إلهي.. أود أن يميلوا برؤوسهم لأسفل! أنا تعبة للغاية من كوني وحدي تمامًا هنا!))

مغامرات أليس في بلاد العجائب

بـــاريـس 1

ونحن ننعطف في ممرِّ سان سباستيان عند نهاية حيِّ سان أمبروس، أحكي لدورا بحماسٍ عن العرض الذي نعدُّه.. سنستعين بلوحات دالي وإرنست وماجريت ودوروثيا تانينج المستوحاة من الرواية كديكورٍ وخلفيَّاتٍ للمشاهد.. ستكون أليس نيمفو حقيقيَّةً تحبُّ الجنس بشبقٍ أصيلٍ.. ستخبر جوقة حفل الشاي الأبديّ: لنخلع ملابسنا ونتظاهر بأننا أرانب مكهربة! "التفاصيل أنانية، الذوبان معْطاء.. هذا هو الشعار".. أقول لدورا. الحرِّيَّة في تقبُّل الغير وإهدار النفس على مذبح الجموع.. إيروس وفيلوس وأجابي يرتِّلون في كورس الآلهة معًا نغمة التواصل والتشابك الملحميَّة..

نسير قُدمًا في الممرِّ وأنا أشرح لها أن الأورجي احتفالٌ عربيديٌّ صاخبٌ للقلب الوحيد، الطقس الأكثر تواضعًا: "فيه لا تكوني مركز الحدث، ولا فاعله الرئيسيَّ، بل هي الرغبة العمياء المشاع، أنتِ مجرَّد جزءٍ من الكلِّ، ترسٍ في الآلة الكبيرة، ذراعٍ خشبيٍّ للطاحونة، أرنبٍ في حفرةٍ مليئةٍ بالأرانب"... أستمرُّ في استطرادي عن الإمكانيَّات المسرحيَّة للرقص تعبيرًا عن آلةٍ غنائيَّةٍ جسدانيَّةٍ مركَّبةٍ كالأورجي، تشيع البهجة البوليفونيَّة عبر أوتار الأعضاء الجنسيَّة المشدودة والمتعرِّقة.

حتى سمعنا الصوت يخرج من اللامكان..

تسمَّرنا مكاننا.. ومع ذلك، اصطدم بنا جسد من الخلف.. التصقت دورا بي بشكلٍ تلقائيٍّ وانكمشت بجانبي الأيسر.. عاد الصوت أكثر قسوةٍ.. حاولت أن أتكلَّم بشكلٍ هادئٍ وواثقٍ.. - ماذا تريد؟ كان يغطِّي رأسه كاملًا بغطاءٍ صوفيٍّ أسود لا يُظهر سوى عينيه وفمه، في يده سكينٌ يلمع في أعين الكاميرات بالزوايا.. - لا داعٍ للعنف! نظرتُ في عينيه لأرى وقع كلامي عليه، فصُعِقتُ بقسوةٍ غير عاديَّةٍ فيهما.. لكن شيئًا ما جعلني أتعاطف معه، أن أدرك كنه تلك النظرة بعد لحظة.. تمنيتُ رؤية وجهه مشوَّهًا ومخرَّبًا دون المساس بعينيه.. تلك النظرة الثاقبة أسرتني.. لم أعد أرى عينيه وفمه المغلق في قسوةٍ كتهديدٍ لي، بل أرى خلاصته.. ماهيته.. كلُّ أعضائي ارتجفت.. ليس الأمر غضبًا أو كراهيةً أو حتى خوفٍ، بل أكاد أقول إنني أحبُّه، وأعرف كيف أمدُّ الجسور معه.. كلُّ ضربةٍ هي هتاف مبادرةٍ مني كي ألتحمُ بجوهر ذاته، وبالأشياء كلِّها داخله.. أنزعُ نفسي إليه.. أتَّحدُ معه.. أتناغمُ.. كلَّما واصلتُ طاقتي بطاقته ازددنا وهجًا. كالفيضان أنا وهو نرتفع معًا، وصيحاتٌ تحوِّطُنا بسياجٍ يحمينا.. لم أعد أسمع الآن.. وأكاد لا أرى.. لكني أحضنه إلى ذاته، الذي كان لي منذ البدء، الذي أراه خاصَّتي، بهيامٍ إلى خلاصته، هذا الذي هفا إليَّ وحرارة جسده تدفئني.. أدمِّرُ غلافه كي أجلوه لي.. أستطعمهُ.. أتمادى معه.. أتفاهم وأستفْهمه.. على فمه بكل عزيمتي تكتَّلتُ.

صوت ارتطامٍ مفجِعٍ أفاقني، في نفس اللحظة التي صرخت فيها دورا، وعادت حواسّي فجأةً كلها بإيقاع الزمن السريع، بعد أن كان سائلًا لزجًا يكتم كلَّ شيءٍ.

ارتدَّ الرجل إلى الوراء كطائرٍ تلقَّى رصاصةً في صدره.. لم أشعر بالآخر يتحرَّك خلفي حتى وصل إلى مجال بصري.. كلُّ ما رأيته أنه سدَّد سكينه الكبيرة المشرشرة في غلٍّ داخل جانبي الأيمن.. متزامنًا بعدها بلحظةٍ مع ضربة شيءٍ صلدٍ على مؤخِّرة رأسي.. واسودَّت الدنيا.

1

الصحراء الغربية 1982.. 7 مارس الساعة 11 مساءً ودقيقتين.

لن تستطيعي أن تكوني في هذا المكان والزمان أبدًا..

المغزى؟ الإنسان له حدود.. أين تنتهي هذه الحدود التي تبدأ بتلك الفجوة الزمكانيَّة؟ لو سردتها عليكِ، لن يطاوعكِ قلبك أن تقومي حتى من مكانك الذي تجلسين فيه تقرأين هذا الكلام!

أكتب لكِ لأن الرسائل علامات انفصالٍ كما يقول بيسوا، علاماتٌ نكتبها بالضرورة لأننا بعيدون الواحد عن الآخر.. أكتب لأنني لم أقدر أن أفهم في مرَّةٍ من المرَّات التي حاولتُ فيها جاهدًا، حقيقة ذلك الذي لا يُستطاع استعادته أبدًا.. حاولت بالفعل جاهدًا أن أفهم.. اليوم كنتُ في خروجةٍ ودِّيَّةٍ، وكان الكلام عن الحبِّ.. جاوبت تلك الفتاة ببساطةٍ ووضوحٍ كأنها تشرب الماء.. فهمت لحظتها أن الأمر ليس أني غير قادر على الفهم، بل غير راضٍ عن القبول؛ هذه الفتاة اللطيفة حلَّت المعضلة بنفيها.. الحبُّ ينتهي ويموت ويحدث مرةً أخرى مع آخرين.

قبل هذا الزمن تقابلنا. في سنتكِ النهائيَّة بالجامعة.. تصغرينني بعامٍ. عندما صارحتِني بمشاكلك، لم أنتبه بما فيه

الكفاية، قلت لكِ إننا لسنا أكثر غرابة أطوارٍ عن الآخرين، بل قلتُ أيضًا نحن بطريقةٍ ما أكثر سويَّةً (كم أضحك على هذا الآن!) كان على أن أفهم من البداية، أليس كذلك؟ أن أفهم أن هذه بداية النهاية.. الشكوى المستمرَّة هي علامة بداية النهاية دائمًا.

يقول بورخيس أن المتاهة الأكثر رعبًا من المتاهة الدائريَّة هي متاهةٌ في خطٍّ مستقيمٍ.. لي أن أظن أنه يتحدَّث عن الزمن ومروره الخادع.. ما عرفته خلال تلك المتاهة على وجه اليقين هو أن الحبَّ يظهر بكامل وجوده حين يعمل الواحد ضدَّ نفسه، حين يبدو كشيءٍ خارج الحسابات المنطقيَّة للانتفاع والحفاظ على الذات، مجسَّدًا في شعور الرضى بالخروج من اللعبة خاسرًا.

لكن كيف ارتبط دخولك - وخروجك من - حياتي بشعوري بأني كبرت، وأن الموتَ أفقٌ مرسومٌ، والدين وشاحٌ خلعته، والمجتمع خصمٌ قذرٌ أحتاجه دائمًا، والحب ينتهي ويموت ويحدث مرّةً أخرى في متاهة خطٍّ مستقيمٍ؟

2

جيِّدٌ.. جيِّدٌ لأنك تجعلينني أُخرِج ما أزدرده باستمرارٍ، حتى جعلته خميرةً سحريَّةً تصلح لأن يجلس ويحكيها الأمير الصغير للأطفال الذين لن يفهموا شيئًا، والكبار الذين سوف يتجنَّبونها في خجلٍ وحرجٍ كأنهم لا يسمعونها.. دعيني أقول لكِ في بادئ الأمر: صحوتُ الآن وسط الليل مفزوعًا أتصبَّبُ عرقًا لأكتب لكِ.. لعلَّكِ تعلمين بحدسٍ ما.. تترائين لي في أحلامي كعادتك، دائمًا تناديني في مكانٍ غريبٍ تسمينه "هنا!"

كلُّ الأمور تمضي.. هذا صحيح.. لكن بعض الأشياء تأخذ وقتًا أكثر من غيرها.. النقطة الأوَّليَّة والأهم في خطوة العلاج النفسيّ، أقول لكِ، هي أنها تُحدُّ من لا نهائيَّة المشكلة والألم داخل الذات، وتضعها في إطارٍ ذي أبعادٍ مُحدَّدةٍ يمكن التعامل معها.. في انتظار دوري في صالة المُحلِّلة النفسيَّة، أنظر إلى أغلفة مجلَّات وكتب تقضية الوقت المتراصَّة على الطاولة، وأفكِّر فيما سيكون شكل الجلسة الأولى بعد قليلٍ.. وهل سأصاب بنوبة فزعٍ أو لا.. تصادقتُ يا ليلى مع طفلةٍ تُعالج أيضًا مع نفس المُحللة لا يتخطَّى عمرها التاسعة.. مؤلمٌ، أليس كذلك؟ طفلةٌ في هذا العمر بدلًا من أن تلعب وتمرح مع أقرانها؟ ننتظر معًا خارج الغرفة في صالة العيادة ونتحادث عن الأفلام والأغاني واللغات التي تتعلمها في الصيف.

تمدَّدتُ على الشازلونج.. المحلِّلة الشابَّة صامتةٌ تنتظرني كي أتكلَّم.. بدأت الكلام بصوتٍ خفيضٍ من ثمَّ ارتفعت نبرته.. لقد حلمتُ هذا الحلم.. لا أتذكَّر الكلمة الأولى، وإن تذكَّرتها سأُبقيها مدفونةً داخلي.. سألتني لمَ أخاف الكبر والعجز والموت؟ لم تعجبها إجابتي وغضبتْ، لكني آثرتُ الصمت كعادتي حين يغضب مني أحد.. قلت في خجلٍ إني سأحاول أن أركِّز تفكيري على الزواج والحبِّ والأطفال كما ينبغي لأحدٍ في مثل سِنِّي، لا الموت والرعب والعجز والتحلُّل والوحدة.. بعد انتهاء الجلسة فكرتُ في الله كأمل.. الله كانتظار لشيءٍ سعيدٍ يشرح الروح سيقع ليمسح كلَّ الأوجاع والآلام.. منتشيًا بالفكرة وبإحساسٍ خالصٍ بوجود الله، قررتُ قرارًا مفاجئًا.. أن أذهب خلال شارعٍ مجهولٍ بدلًا من أن أرجع للسيارة، سرتُ خلال مناخٍ مختلفٍ تمامًا؛ أطفالٌ صغارٌ يلعبون في القذارة، ناسٌ يأكلون الفول على عربةٍ على الرصيف، أبتسم وأضحك بطريقةٍ مريضةٍ بهذه النغزة الصغيرة بقلبي.. نغزةٌ قبضت صدري وصعدت إلى حلقي وجعلتني أُجهش في البكاء في وسط الشارع.

أحدِّق في الظلام يا ليلى بعد أن استيقظت مفزوعًا من كابوسٍ كنتِ فيه، لأكتب لكِ على ضوء شاشة اللابتوب: الحبُ هو الخدعة التي تنجينا من جنون هذه الفكرة.. فكرة أننا داخل أسطواناتٍ معزولةٍ بمفردنا، أنه لا سبيل للتوصُّل إلى

آخر ما أينما كان، أننا وحدنا، وحدنا تمامًا داخل أجسامنا. هذه الفكرة المرعبة بأنه على الرغم من تلك المليارات من البشر لا نعرف أحدًا حقًّا، ولا نعيش مع أحدٍ سوى أنفسنا.. تتحوَّل هذه الخدعة إلى أفكارٍ نعيش بها، أفكارٍ كونيَّةٍ تسمح لنا بالتسامح مع كوننا ضعفاء وهشُّون.. وبالرغم من كوننا وحدنا، إلا أنه يوجد شخصٌ ما بالخارج موجودٌ لأجلنا.. لأجلنا فقط.. نستطيع التواصل معه على عمقٍ قد يدفع هذه الوحشة اللانهائيَّة، تلك التي نُميت أنفسنا كلَّ لحظةٍ للهروب منها.. كان لا بدَّ أن أطوي الصفحة، أعلم، لكني فشلت.. أنا شخص يا ليلى لا أودُّ العيش معه.

مع ذلك لم أبلغ الجنون، أقول لكِ، دائمًا كنتُ أتجنَّبه ما إن تبلغني رائحته الحرّيفة.. لكنني أخشى كثيرًا، خصوصًا في أيام الصمت الثقيل، والجسد يخونني بكيميائه متفلِّتًا من ربقتي، أن يبلغني هو.. المرض العقليُّ في عائلتنا وراثيٌّ.. أحسب أنني سأنتحر حينها.. حين ينغلق عليَّ اليأس والمرض.

3

الجامعة خاصَّةٌ دوليَّةٌ غالية المصروفات.. رسميًّا لا آخذ مصروفًا منذ أعوامٍ بعدما منعه أبي عني، لكني أخنصِر من نقود البنزين والورق الذي لا بد أن يُطبع لسببٍ لا أعرفه، بجانب دعم أمي الماديّ لي.. لم يحاول أبي مواصلة الارتقاء الطبقيّ بعد الرجوع من الخليج حيث ولدتُ هناك.. بقي جالسًا في المنزل كأنَّ حياته قد انتهت عند هذه النقطة.. تعرفين.. لدينا سيارةٌ يابانيَّةٌ موديل 76، تعطل خمسة مراتٍ أسبوعيًّا - وهنَّ المرات الخمس التي أذهب فيها إلى الجامعة - في دخولنا العام الدراسيّ الجديد - السادس بالنسبة لي لأني رسبتُ في موادَّ عديدةٍ على مدار الفصول السابقة - رأيتكِ.. فتاةٌ سمراء محجَّبةٌ بلا شيءٍ خاصٍّ يميّزها، تمشي بهدوءٍ حاملةً كشاكيل السلك على ذراعها المثنيّ وتتحدَّث باسمةً مع صديقتها، وفي عيونهما حماسة المستقبل واستقبال مرحلةٍ جديدةٍ على وشك الحدوث.. دومًا نفس نظرة الشغف والتطلُّع في السنة النهائيَّة من الدراسة.. الملل ممتزجٌ بالتطلُّع وحالة الوشوك على إنهاء مرحلة انتظار مُجهِدٍ.. كيف لم أركِ من قبل؟ أو أنني رأيتكِ ولم أنتبه؟ قلت لنفسي: صدرٌ صغيرٌ لكن هناك احتمالًا كبيرًا لأن أحبك.. ما المسافة بين رؤية شخصٍ والإعجاب به، وبين السكون إليه؟ إنها مسافةٌ مكوَّنةٌ من الرقص الطقسيّ الحيوانيّ والتعقيدات الإنسانيَّة وكميَّةٍ لا نهائيَّةٍ من المخاوف

والشكوك والتردُّد وعدم الثقة.. في تلك الحالات التي أعرف مُسبقًا أنها فوق قدراتي.. أتخيل أنا بديلةً لي تعيش في مدينة باريس.. مختلفةً كلَّ مرَّةٍ: كلانا في نفس المرحلة العمريَّة تقريبًا، إلا أنه يتصرف بشكلٍ أكثر حنكةٍ وخبرةٍ: يجلس في مؤخِّرة المقهى، بعيدًا عن أعين الناس.. تحيط به مرايا كبيرةٌ، إضاءةٌ خافتةٌ ومقاعد مغطاةٌ بقماشٍ شبيهٍ بالجلد.. المقاهي هي أفضل شيءٍ في باريس، لا المتاحف ولا المعارض.. فريدريك.. نعم، دعينا نسميه فريدريك.. يجلس فريدو في مقهى قريب من محطة سان لازار.. قميصًا أبيض.. غرة طويلة.. بنطلون جينز بأزرارٍ فضيَّةٍ.. وشعره متموّجٌ كبطلٍ أغريقيٍّ مهمومٍ.. نحافةٌ تبدو زائدةً عن الحدِّ.. عيناه سوداوتان بطريقةٍ غريبةٍ تحت إضاءة المقهى الخافتة، رغم أن الوقت نهارًا.. ذلك لأن ضوء الشمس لا يصل في العمق إلى الطاولات والمقاعد.. "استلقينا في حجرات البحر / بجانب الحوريات المكلَّلات بالأعشاب: أحمرٌ وبنيٌّ / حتى أيقظتنا أصواتٌ بشريَّةٌ، وغرقنا". هكذا يقرأ فريدو نهاية قصيدة لإليوت ويغلق الكتاب ويقوم.. يحاسب الشابة وراء الكاونتر بتنورةٍ قصيرةٍ وسيقانٍ طويلةٍ، ويضع الجاكيت الجلد البنِّيَّ على كتفه الأيمن ماسكًا إياه بأصبعٍ واحدٍ ويخرج إلى الشارع بعد أن يدفع الباب الزجاجيَّ بيده الأخرى، فيصدر بملامسته أجراسًا صغيرةً مُعلّقة بجانب ملاكٍ جصِّيٍّ صغيرٍ أبيض، صوتًا حميميًّا لطيفًا.

4

في الجلسة التالية حكيتُ لمحلِّلتي الشابة عن التي كانت تجلس أمامي على كرسيٍّ كبيرٍ من الطراز القديم، وأنا جالسٌ على الأرض فوق وسادةٍ حمراء هي كيسٌ كبيرٌ محشوٌّ خرزًا فيلِّينيًّا يبدو كعوَّامةٍ بلا فتحةٍ، وفي يدها سيجارةٌ مشتعلةٌ؛ تقول إن الإنسان إذ ما وصل إلى ما يفترض الوصول إليه، يكون لديه دافعٌ مقنعٌ للانتحار.. كانت خرّيجة كلية الفلسفة وتقول بطريقةٍ عاديَّةٍ إنها ستنهي حياتها في الـ37.. أذهلني التماثل بينها وبينك.. نفس الرقم الذي طرحتيه بعفويَّةٍ.. ارتجف عقلي المتشرّب كئوس الفودكا والمارتيني حينها.. سألتني المحلِّلة هل أفكر في الانتحار؟ فشرحت لها أن مَن على هامش الحياة يُدرِك أنه لا يحتاج إلى فعلٍ إراديٍّ لتركها.. من يصيبه نوبات الفزع، يعرف تمامًا كيف تنسحب الحياة من حلقومه، ويرى الخطَّ الفاصل المُرَّ بعينيه.. حينها يرى الحياة بطريقةٍ مختلفةٍ، تجعل من السُّخف أن يحدِّد لها حدًّا معيَّنًا دون غيره.. فهي ثعبان أناكوندا ضخمٌ يلوي جذعه باستمرار.. ليس عليكِ ترويض الوحش.. دعيه ينقضُّ عليكِ بهدوءٍ ويرحل.. أظن هذا بالفعل.. إذا تركت نوبة فزعٍ دون مقاومةٍ، سأموت.. طبعًا قبل أن أدرك أن أسوأ شيءٍ أثناء نوبة الفزع هو مقاومتها.. الخبرة لها ثمنٌ.. والانتحار - في النهاية - رسالةٌ، رسالةٌ مثل تلك التي أكتبها لكِ الآن بعد الثالثة صباحًا.. فعل الانتحار

إشارةٌ أخيرةٌ لحلِّ الموقف، رسالةٌ مُضمَّنةٌ لشخصٍ آخر كي يكمل دائرة الموقف: يعذره أو ينفعل به أو حتى يشتبك مع مَنْطقه.. الانتحار هو أعلى طريقة للتكيُّف، حيث الواقع يبقى موجودًا، والأنا غير موجودةٍ للتأثُّر به، تعاملٍ قاطعٍ مع الموقف الوجوديِّ وأعلى نوعٍ من التواصل؛ علانيةً فجَّةً، جذب انتباه واهتمام، إعلان بوضوح عن رسالةٍ أو هدفٍ لأكبر عددٍ ممكنٍ - نقل الذات للآخرين حرفيًّا.. يجول بخاطري انتحار جيل دولوز.. قفز من شباك نافذته بالدور الرابع، وهي الطريقة التي احتاجت الكثير من المجهود نظرًا لحالته الصحيَّة المتدهورة، في حين كان بإمكانه أن يتَّخذ وسائل أكثر هدوءًا وأقل عنفًا للموت.. أنا أخذت الحدث كفعل اعتراضٍ وجوديٍّ بسبب المرض المهين والقاتل الذي تعرَّض له، فالجميع يعرف أنه رفض أن يقابل أحدًا في فترة مرضه حتى لا يُرى في هذه الحالة من الضعف والمهانة وقلة الحيلة.. أما ما أفكر فيه الآن فهو على النقيض تمامًا: هو لم ينتحر اعتراضًا، على العكس، أراد في فعله الأخير، فعله الذي يتحكَّم به في وجوده وميعاد موته، أن يكون فعلًا حيويًّا نشطًا، جسمانيًّا: أن يفتح الشباك للنور ويقفز منه. أراد في فعله الأخير أن يشعر بنفسه وهو يطير.

5

كنتُ جالسًا على كرسيٍّ من النوع الذي يطوى لأسفل، في قاعة المحاضرات شديدة الإضاءة والبرودة، بسبب هواء التكييف المركزي الذي لا يستطيعون ضبط ثيرموستاته أبدًا لسبب غامض، حين خرج فريدو من المقهى.

ليلى.. هكذا عرفت اسمك من مناداة صديقتكِ، تجلسين في الصفِّ الثاني من الأمام على اليسار.. هذا مكانك الأثير.. سمعتُ المحاضرة تلك في السنوات الماضية فأعطيتُ نفسي عذرًا لعدم التركيز، ووضعته كاملًا على ظهركِ محاولًا سبر أغوار حجابك لتخيُّل منبت العنق من الخلف.. بسيطة الهيئة والملبس، تربطين شعركِ بطريقةٍ عاديةٍ، وترتدين جينزًا أزرقًا وقميصًا غير مزخرف.. لكنك برغم ذلك فتاةٌ عذبة.. مأخوذًا بشدةٍ بفكرة التجربة، فكرتُ في كل السيناريوهات الممكنة للتعرُّف عليكِ، في كلِّ خطوةٍ أصدم بالواقع الخشن كي أتناثر فأُشهر سلاح التحليل الملتاث، وأدخل في دائرةٍ مفرغةٍ أدفع بها شعوري بمرارة الفشل في تحقيق مآربي.. انتهت المحاضرة وخرج الطلبة متزاحمين في مللٍ، ألقيت نظرةً أخيرةً عليكِ فوجدتك تسألين الدكتور وتشيرين إلى كراسك.. لم أركِ من قبل وقد وصلت إلى عامك الدراسيّ الأخير!

يرجع فريدو إلى المنزل على أطراف باريس بعد غروب الشمس.. يفتح الباب وهو يدندن أغنيةً لجورج براسان..

الشقة صغيرة الحجم.. فوضي الملابس واللوحات والأشياء في كلِّ مكانٍ. يختار الانزلاق في صباح أنينها ليمسك بالذي يريد التوصُّل إليه: "حبيبتي ماذا كان يحدث الليلة الماضية؟" لتردَّ هي بنعومة في صوت خفيض: "كنت أصنع أركيتايب حياتى، وأحوِّلك إلى ميكانيكيَّةٍ صافيةٍ خلَّاقةٍ للحقيقة، كنت أفعل هذا من أجل أولادنا". هذا أول - ثاني شيء عرفه فريدو هذا المساء، عندما كان يفحص ظهرها العاري بدقّ بصمات الأصابع.. - وهل سعدتِ بأولادنا في الحلم؟ - نعم، نعم! بنفس القدر الذي كنت أحب بيتنا الملوَّن مون شيري. - مون شيري.. لا بد أن ننزل للعشاء. - اسكت وقبّلني بطينًا.

خارجًا من دورة المياه، أُدندن لحنًا في هذا الخميس الخالي، أراكِ قادمةً نحوي، وأنا أُهذّب شَعري الكثيف، في خفَّة من يمشي في خميسٍ خالٍ.. بُغِت كلانا.. أظن أنكِ لاحظتِ تحديقي المستمرَّ طيلة الأيام الماضيّة.. استدرتِ ورجعتِ من الناحية التي قَدِمتِ منها، لكن الورق تساقط من بين يديكِ وطارت كلُّ ورقةٍ في اتجاه.. ورقة منهم أخذت تتأرجح في الهواء، ذاهبةً وآيبةً، تتطوَّح يمينًا ويسارًا، حتى سقطت في هدوءٍ أمام قدمي بالضبط.. انحنيتُ ببطءٍ والتقطتها وعقلي فارغٌ من أيِّ شيءٍ.. فارغٌ مثل تلك الورقة البيضاء.. مثل هذا اليوم الخالي.. رفعتُ رأسي للَّحظة الحاسمة، والتقتْ عينانا في وضوحٍ.. ابتسمنا معًا.. هندسة طبعًا؟ أيوه.. قلت اسمي.. فقلتِ ليلى.. في قسم إيه؟ إليكترونيات، وأنت؟ أنا.. شبكات.

أتحسَّس جسدي بالليل لأتأكَّد من أنني لم أزل مكسوًّا باللحم ولم أتحوَّل إلى جسدٍ هشٍّ من الأوراق، جدرانٍ من الأوراق، مكتبٍ من أوراق، حوائط من الأوراق، منضدةٍ من أوراق... أتحسَّس جسدي مرةً أخرى.. أتمدَّد في السرير وأحلم: بم تحلم؟ وبم تهوَّس؟ أيُّ مقدارٍ من الصابون تستخدم أثناء الاستحمام؟ أيُّ أجزاءٍ من جسدها تتركها دون دعكٍ أو دون أن تمرَّ عليها لتنظِّفها، أو حتى تمرُّ عليها سريعًا؟ هل تثبت اللذَّة لديها في الحلمة اليمنى أم اليسرى؟ أم تتساويان في الجنون؟ كيف يتكوَّن على جسمها الملح بعد طلوعها من البحر؟ طريقة نزعها ثيابها؟ ثيابها الداخلية؟ لونها المفضل؟ هل تعضُّ على شفتها وهي تحلم أحلامًا حسِّيَّة؟ كيف ترفل؟ حالها وقت ذروة النشوة؟ هل ينفرط عقدها أم تتماسك؟ لون وجهها وسمته أثناء الطلوع والهبوط؟ هل تتشقَّق كالنُّعمان وتحتضن أم تبقى مكتفيةً بذاتها وحدودها؟ هل تَحوي أم تُحوى؟ تَخدم أم تُخدم؟ أيُّ أغانٍ تغنيها بعد اللقاء؟ هل ترقص وهي تغيِّر الملاءات؟ هل تهلوس أثناء مشيها من غرفةٍ لغرفةٍ بكلامٍ عن متعةٍ دائمةٍ وسماءٍ هي في الأرض وجنة عدن التي لم تُفقد؟ كم دقيقةٍ تتكلَّم في الهاتف يوميًّا بشكلٍ إجماليٍّ؟ كيف تنظر عندما ترنو بحبٍّ؟ كيف تستقبل القُبلة؟ تغمض عينيها؟ ماذا كانت تريد أن تصبح وهي طفلة؟ ما ترتيب ملابسها في الخزانة؟ حسب الألوان أم القطع أم الجِدَّة؟

شعرت بعد تخيُّلاتي وتخميناتي بفداحة أن يكون الإنسان في مثل هذا العمر ولم يمارس الجنس أبدًا.. إمكانات وطاقةٌ جسديَّةٌ وشعوريَّةٌ تضيع مع مرور الزمن الثابت باستمرارٍ.. بالتأكيد لم تمارس الجنس ولم تقبِّل أحدًا أبدًا.. أقول هذا لنفسي كنوعٍ من التعزية.

في الأيام التالية عرفت تفاصيل ربما تكون للآخرين بغير أهميَّة: الاتجاه الذي تشربين منه من حافَّة كوب النسكافيه الورقيّ.. ضمَّة شفتيكِ الكبيرتين أثناء الرشف.. تبديل الكوب من يمناكِ إلى يسراكِ بين جمل كلامك كوزنٍ لإيقاع الكلام.. شكل تكوُّن قطرات العرق تحت إبطيكِ بسبب الملابس المحافظة في نهاية الصيف، كيفية جلوسك على الكرسيّ بعد أن تمسحي غبارًا وهميًّا على بنطالك الجينز من الخلف.. رائحتكِ وأنتِ تمرّين بجانبي في الممرّ الضيّق.. كيف تستندين على الحائط ويديكِ خلف ظهركِ وأنتِ تتحدَّثين.. كيف تمدين ذراعكِ لتفتحي الشباك.. جسدك أثناء الضحك... الضحك.

احترفتُ النظر من نافذة الدور الثاني.. زاوية جديدة.. تتبقى بعض درجات وتصبح عين الطائر.. أكلمكِ من خلف الزجاج المُغلق دون أن أحرّك شفتيَّ.. أضع أصابعي على الزجاج، أزلقهم بصوتٍ مسموعٍ، ثم أضع خدي بسرعةٍ ليلحق بحرارة أصابعي المطبوعة على الزجاج، فتبدو كأنها بَشرة، أو أصابع تلمس برفقٍ وجنتي.

بـــاريـس 2

أقزامٌ وعمالقة.. حيواناتٌ تقود وأشياء تحكم وبشرٌ يخضعون.. هذا العالم النسبيُّ المعكوس لأليس حيث سقطت.. أخذت تسنيم دور ملكة القلوب؛ الملكةُ بملامح شرقيَّةٍ وعيونٍ ملوَّنةٍ ثاقبةٍ.. لكن من بحق الجحيم هي أليس؟ كنا ننفِّذ مشهد مبارة الكريكيت دون أليس، كل المشاهد المبدئيَّة التي قمنا بالتدريب عليها بدون أيِّ أليس. اعتقد المتعهِّد أن هذا مقصود، وقال إنه أحبَّ كون بطلة العرض هي الفراغ، اللاشيء.. ضربة حظ! لم لا؟! حين رجعتُ إلى الشقة وحكيت لدورا قالت إن عنصرًا أساسيًّا للمسرحية مُفتقدٌ، وهو العنصر الطفليُّ.. العنصر الذي يعطي أحساسًا أساسيًّا يتحرَّك عليه هذا العالم النسبي، المنظور الطفوليُّ هو ما يعطي مكونات العالم معنى وأهمية، بدونه هي أشياء خَرِبة مُرعبة.. جادلتُ بأن حذف العالم الإنساني بالكامل سيجعله عالمًا كاملًا مغلقًا على ذاته، عالمًا يعطي قيمته بنفسه.. ويبدو أنها اقتنعت لأنها نظرت إلى السقف بحركةٍ سريعةٍ من عينيها، تلك طريقتها حين تقتنع بأمرٍ ما، كأنها تأخذ إشارةً من العُلى على هذه الموافقة.. قلت مازحًا إن مسيو موريس المسئول عن المبني يصلح تمامًا لدور الدوقة، فضحكت ودخلت في حضني كقطٍّ أمرد يستدفئ.. سألتها إن كانت تأخذ الدواء فقالت في غضب إنها لا تريد أن تستمرَّ في أخذه فهي أصبحت على ما يرام..
- فقدتِ هذه المرَّة لوحك، لا نعرف ماذا ستفقدين المرّة القادمة.

- الأدوية تقتل الإبداع داخلي، تخيَّل فان جوخ على مثبِّتات المزاج ومضادات الذهان والاكتئاب! - أنا لا أريدك أن تكوني بأذنٍ واحدةٍ وميتةٍ يا دورا. - خراء.. أنت لا تهتم بي سوى كأنثى تضاجعها.. أنت لا تحبني. - ها قد عدنا.. بحق الخراء يا دورا خذي الدواء.. أو اذهبي إلى مصحة مرة ثانية.. رابعة.. عاشرة.. مليون! قمتُ من السرير ولبست ملابسي على عجلٍ كاذبًا عليها بأن لدينا تدريبًا هذا المساء، وخرجت من الشقة على الفور.

- لكنني لا أريد الذهاب وسط أناس مجانين!

- أوه، لا يمكنك فعل شيء حيال هذا..

- كلنا مجانين هنا.. أنا مجنون.. وأنتِ مجنونة. كيف تعرف أني مجنونة؟

- لا بد أن تكوني. أو لم تكوني لتأتين هنا.

سجَّلنا بعض الحوارات من الرواية التي سنذيعها في العرض بطريقة البلاي- باك. حين نشغِّلها يتجمَّد الممثلون على المسرح حتى نهاية التسجيل ليستكمل العرض.. حلٌّ ممتازٌ لغياب أليس.. لا يتبقى سوى اختيار الموسيقى المناسبة للعرض.. أفكر في سترافنسكي أو شونبيرج أو ديبوسي.. اقترح الأمريكي، جون كيج أو إدجار فاريسي أو حتى موسيقى أصليَّة، وطرح اسمين مصريين هما حليم الضبع ومينا ناجي.. أميل في الحقيقة لفاريسي.. أقرب إلى روح العالم القلق المشعّ والمتحرّك الذي أسعى إلى خلقه.. بعدما انتهينا ذهبنا أنا وتسنيم وجاك إلى لو

جراس مع الأمريكيّ للعشاء. بعدها أوصلنا الأمريكيُّ بسيارته المستأجرة إلى فندقٍ قريبٍ رخيصٍ. نزلنا أنا وتسنيم وانطلق هو وجاك ليوصله إلى محطة المترو ويرجع حيث يسكن في الناحية الأخرى من باريس.. كانت تسنيم بفرنسيَّتها المثقلة بلكنةٍ، تبوح لي بشعورها بالذنب تجاه دورا.. أفهمتها أن دورا تائهةٌ في عالمها الخاصّ ولا تنظر أمامها مقدار خطوةٍ.. العالم كبيرٌ وضخمٌ ويقف دائمًا ضدها.. محتارة في أن تأخذ خطوةً في أيّ اتجاهٍ حتى لا ينقضَّ عليها ويقضي عليها في ضربةٍ متوحِّشةٍ واحدةٍ.. كوني بجوارها دومًا ضد العالم يقضي عليَّ.. أفهمتها أنني أحتاجها بجانبي.. وربما لن تعترض دورا أصلًا إذا عرفت.. يحتاج الواحد في حياته إلى من يعبر معه الشارع العريض إلى الناحية الأخرى.. ودورا مصمِّمةٌ على الوقوف حيث هي، رغم أن إشارة عبور المشاة مفتوحةٌ وتدعوها لأن تعبر بسلام.. إشارتها دومًا حمراء.. ووضعت أصبعي على قلبها.

- هل يمكن أن تقول لي، من فضلك، أيُّ طريقٍ ينبغي أن أذهب من هنا؟

- هذا يعتمد كثيرًا على أين تريدين أن تذهبي.

- لا أهتمُّ كثيرًا أين.

- إذن لا يهمُّ أيُّ طريقٍ تذهبين!

- طالما سأصل إلى مكانٍ ما..

- أوه، حتمًا ستصلين، فقط لو مشيتِ طويلًا كفاية.

6

تفهميني، ألمي هو التعبير عن صراعي مع العدم.. مع التكرار المريع للإنسان وفقدان فرادته.. أن تحبي أحدًا غيري هو أنه يتم استبدالي، أني قابل للاستبدال، أن دوري يمكن لأيِّ أحدٍ أن يأخذه ويؤدِّيه، ألا أصبح موجودًا ببساطة.. عدم.

في بداية وعيي كبالغٍ قرَّرت ألا أعاشر شخصًا مريرًا لئلا يكئبني في الدنيا، لكني قد أصبحت مع الوقت هذا الشخص الكئيب نفسه.. هشاشة الإنسان الوضيعة.. أحيانًا أفكِّر أن مشاكلي كلها سببها هشاشة لا تغتفر.. وأن العبور إلى أيِّ اتجاهٍ يستلزم بالضرورة مواجهة تلك الهشاشة القاتلة التي تكتنفني وتشلني عمّا سيّرت نفسي إليه.. دعيني أوضِّح لكِ الأمر.. الهُويَّة كلها تقع في هذا التناقض: إنكِ أنتِ ولست أنتِ.. أنتِ هي الطفلة التي كنتها في السابعة.. لكنكِ، في نفس الوقت، لستِ تلك الطفلة في السابعة، بل شخصٌ آخر بالغ. فهمتِ؟ لا؟ غير مهم. أنا ضربني الجوع حتى أخالني لا أشبع إلا بالرفض.. والآن، انظري إليَّ؛ ما هي مكاسب ألا تعيشي حياتك؟ أعرفُ مشكلتي.. عقلي جائعٌ وقلبي مغلق؛ لا أستطيع أن أغفر لأنني لا أستطيع أن أنسى، ولا أستطيع أن أنسى لأني لا أستطيع أن أغفر.. في النهاية نحن نكذب كي نحمي أنفسنا من شراسة الحياة.. أعتقد أن الفرق بين وعي البالغ ووعي الطفل هو تلك الحقيقة التي تفصح عن أن ما يُفقَد لا يمكن استعادته وأن لكلِّ شيءٍ ثمنًا.. بموجب

تلك الحقيقة، تولد أفكارٌ ومشاعر مثل الحنين والندم والحسرة والتقدير، وتنبني كلُّ نظم الحسابات والتقويم الإنسانيَّة.

لكن ما الذي حدث، حقًّا؟ الذاكرة تُشكِّل وتُزوِّد وتُرتِّب حتى تتضخَّم الذكرى وتصبح مثل ملعب جولفٍ كبيرٍ بوهادٍ عديدة. سألتيني في الحلم كيف يمكن أن يكون الحب المطلق موجودًا بين اثنين محدودين في زمنٍ محدودٍ، وجاوبتك بأنه بالضبط كما يمكن للعدد اللانهائيّ أن يوجد في قلب العدد النهائيّ، بصفة الأعداد المحدودة مجالات حقيقيَّة. عندما بعثت لكِ الإيميل، أردتُ أن تجاوبني حتى يبقى أثرًا ما موجودًا - وإن كان خائبًا - على ما حدث.. حتى لا أجنُّ. بعدما مسحتُ كل الآثار والدلائل التي تشير إليه باستثناء ذاكرتي.. هل من الممكن أن يُعتَمد على خيانة الذاكرة؟ تحت وطأة فشل التذكُّر أردتُ أن أصرخ: هل ما حدث، حدث حقًّا؟ السيّئ في الأمر أني لا أتذكر هل كنتُ تعيسًا معكِ أكثر مما أنا عليه الآن أو العكس هو الأمر الصحيح.. النسيان سيّئٌ أحيانًا.. لكن أكثر شيء أوجعنى في غيابك، طلّتك.. كنت أعرف أنها ستعذبني بعد ذلك.. محبتكِ ارتبطت في ذاكرتي بمحطات المترو: دائمًا بالرحيل، دائمًا بالانتظار.. لكن كيف يمكن أن تركبي على ظهر شخصٍ آخر وتتصوَّرين وأنتما تضحكان وأنتِ قد قلتِ لي إنكِ ستحبينني للأبد؟! "حتى لو كففتُ عن حبي"؟ طفلٌ أنا، أليس كذلك؟ أستسلم، لن أعرف ماهية الحب أبدًا. الطفل في بعض الأحيان يبكي ويرفس أمه، لكنه يا ليلى يجن لو تركته ومشتْ.. يندعس

في نفسه من الكيد والقهر لو حدث وفضَّلت عليه ضَنًى آخر وأخذته في حضنها بدلًا منه.

7

يخترق فريدو ودورا شوارع باريس كما يُخترَق القلب.. الشوارع مزدحمة.. لم يتبادلا كلمة منذ أيام.. يصلان إلى مطعم "لو جراس". مطعمهما المعتاد في أمسيات نهاية الأسبوع. فيجدان شخصين جالسين على طاولتهما المعتادة. يقول فريدو بشجاعة -لأنه ليس أنا- "إذا سمحت! هذه طاولتنا المعتادة يا سيد!" يقولها في أدبٍ للشخص الممتلئ الجالس على اليمين.. يلتفت الرجل في حدَّة، ثم يثور ويصيح أن هذه قلة في الأدب وانعدام للذوق. هذا ثمن الشجاعة يا ليلى. لكن فريدو - لأنه ليس أنا مرة أخرى - ينقضُّ عليه ويكيل له اللكمات والركلات، تحاول دورا أن تجذبه للخلف فيرتطم ذراعه بوجهها.. ينزف الدم بغزارة.. الرجل سقط على ظهره يستنجد بعاملي المطعم الذين جاءوا ونزعوا فريدو من فوقه بصعوبة.. وجهه مغطى بالدم بالكامل ويتنفس بعمق.. يتدخَّل مدير المطعم، يريد الرجل أن يبلغ الشرطة، لكن المدير أقنعه جاهدًا بالعدول عن ذلك تجنبًا لإضرار بسمعة المطعم، ثم استدار إلى فريدو ودورا طالبًا منهما الرحيل بهدوء ودون مشاكل.. لكن فريدو - لأنه أيضًا ليس أنا - يرفض بإصرارٍ إفساد الأمسية.. وبسبب كون مدير المطعم يعرفهما، يجلسهما على طاولة أخرى.. عين فريدو لا تنزل عن الرجل السمين.. جاء بعض أفراد الفرقة: آدم وجاك، كريستين على وشك الوصول. تضع دورا منديلًا على

فمها بجانبه كتمًا لنزف شفتها. "أحب هذا المناخ الدافئ لتلك المطاعم" يقولها باسمًا ليلطِّف الجو. يعلِّق آدم ذو الأداء المسرحي دومًا: "نعم إنك على حق؛ جميل أن يكون المرء برجوازيًّا بعض الأوقات". هذا ما كان لا يقصده فريدو، لكن من يهتم؟ لديه هذه الدغدغة المحبَّبة ويضحك دون سبب واحد حتى. يتمنى أن تتحجر عضلاته!

حالفني الحظ! أنتِ معي في فصل مادة من المواد التي أعيدها. تقاربنا ببطء؛ كنتُ حذرًا مثل مراهق يملك جسده فقط، مجرد بلا سلاح، لا يملك شيئًا إلا جسده وعروقه النابضة، ففي النهاية أنتِ فتاة محجبة على غير ديني، لكني مع ذلك لم أر إشارات منك تدل على الرفض، كنتِ دائمًا تبتسمين حين ترينني وتكلمينني بحماسك المعتاد.

صحوتُ ذاك اليوم وأنا أشعر بأنه أول أيامي على الأرض.. شعور بالبراءة والجِدَّة. أشعر شعورًا غامضًا أني في بدايةٍ ما. أن أمورًا جديدةً ستحدث لا علاقة لها بالماضي.. هذا اليوم هو بداية. يومٌ لا أعرف بقيَّته ولا أعرف على ماذا يُشرف.. كلُّ يومٍ هو أول يومٍ لباقي أيامك فعلًا. لم يجئني الشعور بغتة فور استيقاظي، بل كأنه صوتٌ بعيدٌ ومغبَّشٌ يوضح درجةً درجةً مع بداية صفاء ذهني واستعادة وعيي من النوم.. يدخل عليه صوت حفّار أو ماكينة كبيرة في الخارج. ضوء الشمس يتخلَّل

عبر الستائر وأنا ممددٌ على ظهري أفكر أن ذلك هو أول أيامي على الأرض.. اليوم هو أول أيامي على الأرض. عند دخولي كافتيريا الجامعة وجدتك تقفين بجوار السُلم تعقدين ذراعيك مثل مهرج حزين.. قلبي انقبض.. في أول أيامي على الأرض تبدين حزينة ومهمومة هكذا؟! ألقيتُ عليك التحية فحاولتِ الابتسام.. سألتك ما بك فقلت لا شيء. كررت سؤالي فبحتِ بأنك نسيت المشروع الذي لا بد أن تسلميه اليوم على اللابتوب الآخر.. بالطبع لم أكن قد فعلته.. قلتُ لكِ إني سأتصرَّف.. لكن يجب على فتاة في جمالك أن لا تحزن وتعبس هكذا.. ضحكت ووضعت يدك على فمك كما تفعلين كلَّ مرةٍ تضحكين فيها.. سعيتُ على مدار اليوم للحصول على المشروع، ربما حتى بمجهودٍ أكبر مما أبذله للحصول على شيء لي.. الطلبة متوسطو المستوى يكوّنون مع الوقت شبكةً غير معلنةٍ لتبادل الخدمات الدراسيّة، ومع الوقت يقسّمون المهام والمواد بينهم بدون اتفاق أو باتفاق. حين حصلت عليه أخيرًا من طالب في نفس دفعتي القديمة، وجدتك في قاعة الكافيريا الرئيسيّة بجانب مكتب شئون الطلبة، تعملين عليه.. عرضت عليك الفلاشة وأخبرتك أن تنقليه على حاسوبك، فقلت في حزم إنك تعملين عليه مرةً أخرى وأنك على وشك الانتهاء منه بالفعل.. سببتُ في سري الدراسة التي لا تجعلني أكلمك في الفواصل بين السكاشن والمحاضرات التي لا تتجاوز الربع إلى النصف ساعة.. وبدون سبب وعيت بشكل واضح أن جامعتنا تقع وسط

مساحاتٍ فارغةٍ من كلِّ النواحي وأننا في قلب صحراء جرداء.. شعرت ببوادر خوفٍ وفزعٍ.. عرضت عليك أن تأكلي شيئًا معي فرفضتِ.. ورفعتِ كوب النسكافيه إلى أعلى وابتسمت وانكببتِ مرة أخرى على المشروع. على الأقل مزاجك تحسَّن، قلتُ في سري، مشتتًا تركيزي إلى أيِّ شيءٍ.

مرَّتْ أسابيع قبل أن أصارحك. قبيل امتحانات نصف الترم. كنا على الشات، وفي وسط حوارنا العادي المعتاد صارحتك بمشاعري ناحيتك.. لمدة خمس دقائق كاملة لم تردي.. في بداية الدقيقة السادسة كتبتِ أنك ستنهين المحادثة للانتهاء فروضك التي عليكِ تسليمها غدًا.

8

كان لأحد الملوك ثلاثة أولاد في غاية الجمال والأدب، وقد بنى لهم قصرًا من زجاج ووضعهم فيه، ولم يسمح لهم بالخروج خوفًا عليهم، وكانت إحدى الخادمات تأتيهم بطعامهم في كل يوم، وهو عبارة عن بيضٍ لا قِشر فيه، ولحم لا عظم فيه، وفجل لا ورق فيه، وظلت هذه الخادمة تأتيهم بطعامهم وتخدمهم فترةً طويلة حتى توفاها الله، فصارت تأتيهم بطعامهم خادمةٌ جديدة فأتت لهم بالبيض وقشره فيه، واللحم وعظمه فيه، والفجل وورقه فيه. وفي إحدى المرات رمى أحدهم بالعظم فكسر زجاجةً من زجاج القصر وعمل فجوة صغيرة فيه، فنظروا من خلالها إلى العالم الخارجي، وإذا هناك بيوت وأناس ودواب وأراضٍ خضراء، فأعجبهم ذلك المنظر، وقالوا لماذا نحن في هذا السجن، وعندما أتتهم الخادمة قالوا لها قولي لأبينا، إذا كنا بنات نريد أن نتزوج، وإذا كنا أولادًا نريد أن نتزوج، وإذا كنا زرعًا نريد أن نُحصد. لا أذكر بقيّة القصة لكن أذكر أن الشاب أثناء سيره وجد ريشة طيرٍ مكتوب عليها، مَن يأخذني يندم ومَن يتركني يندم، فقال في نفسه إذا تركتها فأنا نادم وإذا أخذتها فأنا نادم، فآخذها وأندم أفضل من أن أتركها وأندم، وهكذا فعل، وعندما عرف الملك بأن الريشة هي التي كانت تغنّي، قال لها: غنّ يا ريشة، فقالت لا أغني حتى تأتوني بطَيْرِي، فقال الملك: ومن يستطيع أن يأتي بطيرك، فقالت الذي أتى بي

يستطيع أن يأتي بطيري، فقال ملك تلك البلاد لذلك الغريب: أمهلك ثلاثة أيام وثلث اليوم على أن تأتيني بطيرها، وإن لم تفعل، فسوف أقطع رأسك، فخاف ابن الملك الصغير وندم على حمله لتلك الريشة وقال هذا أول الندم.

هذا الحلم الذي يراودني دائما، يمكن أن يختفي لشهور وحتى لسنوات ليعاود الظهور. أني أجري باستمرار من شيء أقوى مني بما لا يقارن، مأخوذ الأنفاس أهرب دائمًا في آخر لحظة، لأستمر في المطاردة المتكررة إلى ما لا نهاية بشكل متصاعد لأصحو مقطوع الأنفاس. لا أعرف ما هو لكنه يتغير من مرة إلى أخرى. أفكر يا ليلى أنه الجنون، أو الزمن المستقيم، أو الجنون في الزمن المستقيم. هل تعرفين تلك الصورة الشهيرة التي انتشرت على الإنترنت أثناء الثورة لهذا الرجل بالآنية المعدنية فوق رأسه يربطها بخيط سولوفان أحمر ومنديل تحت ذقنه؟ نحن جميعًا هكذا أمام الزمن. سذَّج. نحاول أن نتدرَّع بدروعٍ مضحكةٍ، منزلية الصنع بغير إتقان ولا حماية في مواجهة دبابات وقنابل دخان ونيران القدر. عمري أربعة وعشرون الآن. زدتُ خمسين كيلوجرامًا للمرة الثانيّة في حياتي. عندما أسمن لا أعرف نفسي، حقيقةً. هذا اللغد والبطن والمؤخرة الكبيرة تجعلني داخل جسد شخصٍ آخر لا أعرفه. شخص حزين وبائس وسيموت مغمورًا. أنظر إلى

المرآة بنظرة فزِعة؛ متى سيموت هذا الشخص، الذي هو بالمناسبة والمصادفة، أنا؟ ثم أفكر: من أنا لأقول "أنا"؟ أو من أنا لأتكلم خلال هذا الشخص الصامت أمام المرآة. الشخص الذي لا أستطيع أن أُقدِّر عمره بسبب سمنته، وخوفي أن أراه حيًّا في زمن عابر.

في الجلسة. نائمًا على الشازلونج: كأحدٍ شتمني وخرج من الباب وأغلقه خلفه. وبدأت أنا أخبط رأسي في الحائط. كل ما فعلته هو أني فتحت الباب وأدخلته ليسمع صوت الخبط في الحائط. لم أنس كيف كنتِ تدورين كفراشة حولي، أمسك يدكِ. أشد الخيط. تتركينه. يهتز جسدكِ بكنه صوتكِ الذي تحاولين أن تجعليه رخيمًا في الغناء. أترك الخيط. تجذبينه. كنتِ تغنين - لى - وعينيك طفحها الحب والنشوة. تقول عينكِ قبلنى، وجسدك احتضني. أما يدكِ فكانت تدفع في آخر لحظة وتجذب مرة أخرى كأرجوحةٍ مؤلمة. أقُبّلكِ. فتجرين من وراء ظهري لتجلسي على الرصيف كأن شيئًا لم يحدث. تصورين المنازل القديمة وتمسكين بيدي في آن واحد بطمع. فراشةٌ بلا ذنب تعبر حجرتي الآن. لماذا جعلتنى أحبُ يديكِ وأنتِ ستتركينني؟ أمسك بالفراشة بين أصابعي وأقلّبها في سكوت.. لا أريد أن أكون في علاقة الآن؟ أنزع الجناح الأيمن للفراشة.. تهزُّ جناحها وجسمها كلُّه يرفُّ في سرعة.. تلحسين أصابعي وتعضينها؟ الفراشة ميتة الآن تحت ضغط أصبعيًّا بلا أجنحة

أو أطراف.. مدهوسةٌ أمامي على الطاولة.. دعيني الآن أكمل لكِ قصة فريدو ودورا.. لعلها أكثر إثارة للاهتمام بالنسبة لكِ مما أفعله داخل غرفتي وحيدًا..

في صالة التدريبات تدخل فتاةٌ من أصولٍ كردستانية.. يحتاج فريدو أن يكبّر حجم الفرقة من أجل العرض القادم.. "أليس في بلاد العجائب" في شكلٍ تعبيريٍّ معاصرٍ بداية الخريف.. هادئة بعينها الكبيرة الخضراء، كأن خبرتها بالحياة أكبر من عمرها، تمتصّان العالم في شغف، متحمسة لكن تتحرك برزانة.. تجتاز تسنيم الاختبارات الأساسية ويقبلها فريدو في الفرقة.. جسدها ممشوق وطيّع وحسها بالموسيقى قوي.. يبدو أنها ستأخذ دورًا مهمًّا في العرض.. هكذا يفكِّر فريدو.. بعد انتهاء التدريب في الثانية ظهرًا.. ينتظر فريدو ودورا أمام باب المطعم لأنه كامل العدد.. ستشعرين بالجوع كثيرًا في باريس إذا لم تأكلي بما فيه الكفاية؛ لأن جميع المخابز تعرض حلويات لذيذة في واجهاتها، والناس يأكلون خارج المقاهي والمطاعم على طاولات موضوعة على أرصفة الشوارع. وهكذا فأنتِ ترين الطعام وتشمّين رائحته.. والحياة يا ليلى هي ما يحدث حين تنتظرين طاولة في مطعم كامل العدد.. فحين تكونين واقفةً تقضمين أظافرك بجوار الباب، يتصل شخص ما بصديق عزيز له بعض انقطاع دام خمسة عشر عاما، ينجح مواطن أربعيني في اختبار القيادة ويحصل على رخصته بعد المحاولة الثالثة والأخيرة، تسير نملة على الحائط بسير شبه

مقوس في ثبات ناحية قطعة عيش قديمة، ينفجر صبي ضحكًا أمام فيلم أمريكي بحاسبه الشخصي، تسقط امرأة حامل قتيلة أمام عربة مسرعة في الشارع المجاور... الحياة لا تتوقَّف أبدًا، ولا الموت، حتى أثناء انتظار طاولة في مطعم كامل العدد. جلس الاثنين على طاولةٍ صغيرةٍ بعد عشرين دقيقة، وسألته ماذا سيأكل.. ثم مطت شفتيها في قرف، لا تريد أن تأكل.. جاء الجرسون بطبقٍ واحد.. قررت أنها جوعانة فجأة. قسّم فريدو الوجبة في صمت إلى اثنين.. مالت عليه لتقبله، ثم نزعت فجأة شعرة من حاجبه.. صاح متفاجئًا أكثر منه متألمًا.. ضاحكة حتى البكاء؛ نزلت دموع كخطين على خدها مسحتها بمنديل المطعم المتسخ ببقايا الطعام.

لم تكن تلك أول مرة أشعر فيها أني قد فقدتكِ.. ورغم أني لم أركِ سوى مرةٍ فترة امتحانات نصف الترم، إلا أنكِ لم تبدي نفس الحماسة في حديثك معي مثل السابق.. فشلت في الامتحان فشلًا ذريعًا في أقل من ربع ساعة.. لا أعرف أصلًا لماذا ذهبت إلى الامتحان متحملًا الضغط النفسي المصاحب لدخول لجنة امتحان حيث أري الجميع ينكبون على الورق إلّاي.. خرجتُ بعد نصف ساعة مكتفيًا من خداعي لذاتي بعد أن ضاجعت المُراقِبة - التي كانت تنظر لي بريبة النظر لطالب فاشل يحاول النجاة - في خيالي أكثر من عشر مرّات.. ذهبتُ إلى البيت واستمنيتُ.. بعدها نمتُ على أعتاب نوبة فزع أخرى هربت منها بمحايلات النعاس.

بـــاريـس 3

حين عرفت داليا لأول مرة كانت تستعد لمعرضٍ لها. لم أسترح لها منذ أن وقعت عيني عليها لأول مرّة.. وكانت نظرتي صحيحة تمامًا، فقد خرجت الأمور عن مسارها وعن أيدينا جميعًا لتتحول إلى مأساة.

تحاول داليا أن تعيد صورة الفنانين البوهيميين الذين عاشوا في باريس في بدايات القرن الماضي بشكلٍ سخيفٍ ومفتعلٍ.. تلبس نظارة شمسٍ كبيرة دائمًا وثيابًا كلاسيكيّة، وتشرب طوال الوقت أغلي وأرخص أنواع النبيذ على السواء.. شعرها كستنائي باستثناء ضفيرة نحيلة زرقاء تتدلي من جانب رأسها الصغير، وتثقب أنفها في الجهة اليسري برءوس لامعة معدنية على شكل نصف دائرة، ومع ذلك تلعب دور المرأة الباريسيّة الغامضة، وتدّعي الفن كوجاهة اجتماعية مُكمّلة للصورة.. تصادقت معنا سريعًا.. كنا ثلاثة نظهر معًا في السهرات، نشرب ونرقص حتى الصباح ونتمشّى في الشوارع فجرًا متشابكي الأزرع مرتدين أقنعة على وجوهنا كبقايا ليلة عابثة. كانت تعيش في شقة بشارع ليل في الدور الأخير، واكتشفت أن لها ابنًا عمره سبع سنوات، تتركه بمفرده بالأيام، فقط تجيئ مربية كل يوم تطمئن عليه.. كنت أعاملها بحذر فقد كنت مدركًا كم هي ثعبان حقيقي.. تطورت علاقتنا لمستوى آخر في ذلك اليوم، حين كنا راجعين من سهرة من بوليفار سان لوران، نسير في الشوارع

النائمة.. رجعت معنا إلى الشقة لأنها كما قالت لا تريد أن تكون وحيدة هذه الليلة.. دخلنا وشربنا مزيدًا من النبيذ الأحمر كان موجودًا عندنا. تمدد ثلاثتنا على الأرض متكومين على شكل مثلث، نستمع لموسيقى لاتينية راقصة خفيفة مغمضي الأعين، حين اعتدلت بدأت داليا تتعرى من ثيابها، وتحسست جسد دورا مثل ثعبان يبحث عن الدفء.. التفتت لي لتجذبني بذراعها العاري وقبلتني قبلة طويلة شهوانية. فار دمي المليء بالكحول فنزعت عنها فستانها ولقمت فمها أقبض لسانها بين أسناني.. وكثعبان طوال الليل أظهرت الحيل التي تخبئها بين نابيها.. رقص حيواني بارع ولدغات حيث تريد أن تُعض لتموت.. إذا كان لداليا موهبة ما فهى بالتأكيد في هذا المجال.

اختفت داليا الأيام التالية.. بعد أسبوعين رأيناها صدفة في كافيه دو شاتو، كانت مع رجل إيطالي في عمر أبيها.. جاءت إلينا وألقت علينا التحية في تلقائية كأنها كانت معنا الليلة الماضية وعرفتنا على الشوجر دادي.. ماركو أو باولو أو شيء من هذا القبيل.. المسكين مُبتلع كبيضة كاملة.. بيضة بيضاء مشوبة بالحمار.. قالت إنني أعمل على عرض رقص معاصر لقصة سنو وايت.. فصصحت لها دورا المعلومة.. بالطبع بالطبع قالت.. تحب داليا استخدام تلك الكلمة كثيرًا في حديثها.. بالطبع بالطبع.. أنتِ كلبة مدعية يا داليا.. بالطبع بالطبع.. أنتِ حثالة وعالة على الحياة.. بالطبع بالطبع.. أود تهشيم وجهك القذر وبعثرة تنَفجك المدعي.. بالطبع بالطبع.. أندريه بريتون وليس أنطوانين أرتو هو مؤسس الجماعة السوريالّية يا

بقرة جاهلة.. بالطبع بالطبع.. هل تعرفين أي شيء عن أي شيء.. بالطبع بالطبع. أنا جميلة وشابة وفنانة وسوف أبتز هذا العجوز حتى يعود حافيًا إلى بلده الفوضوية القذرة.

أخذنا العجوز الإيطالي (الذي اتضح أنه يعمل في مجال صناعة الأحذيّة الجلديّة وتجارته ممتدة عبر أوروبا كلها وعرفته داليا في رحلتها القصيرة في روما على شرف معرض فني لها)، إلى قصره في الريف قريبًا من باريس بعربته الكلاسيكية المكشوفة الحمراء ماركة جاجوار.. اقترح الرجل، ربما لأنه يريد أن يثبت أنه لا زال على صحة جيدة، أن تكون سهرة الأبسنت. أخرج الرجل من علبة عاجية الأدوات المخصصة له. معالق طويلة وقصيرة بأشكال قوطية جميعها مخرّمة، كاسات شفافة تضيق في الربع السفلي منها لتوسع من جديد حتى حافتها، وعلبة مزخرفة مليئة بمكعبات سكر كبيرة وقداحة طويلة وحتي كارافيه بصنابير صغيرة في كل جهة من الجهات الأصليّة، وأخيرًا ثلاث زجاجات يشبهون زجاجات العطر القديمة لكن بحجم أكبر. وصنعنا جنيات خضراء ملتهبة، كانت تحرسنا ونحن نتناكح داخل غرفة بالدور الأول مليئة إلى آخرها بعينات من الأحذية، شربنا في بطونها بعض الكئوس الباقيّة، كنا في المملكة الخاصة للشوجر دادي الذي يحب الأقدام والأصابع، تلوَّن وهو يقضمها إلى ألوان عديدة منها الأخضر والأحمر أبهجت دورا بالذات لأنها تحب هذين اللونين.

9

كل هؤلاء الطلبة الجدد بأجسداهم النشطة الغضّة.. أنا عجوز جدًّا على هذا الحماس الشبابي.. أمرُّ فأراهم فرحين بالجسد الجديد الذي حصلوا عليه من الصيف.. يستلقون على الأرائك والحشائش الخضر تحت أشعة الشمس، يمدون أذرعتهم في فخر وبهجة بما يملكونه حديثًا.. يعكسون بريق أجساد متفتحة نضرة ويملأون الدنيا صخبًا بلعبة الذكورة والأنوثة، يلمسون بعضهم بشرارة الفتوة والرغبة، يدورون ويلتفون يضحكون ويرقصون، يتقافزون في كرنفال الألوان الصاخبة، في عيونهم نهم الحياة، والأقبال المندفع للآتي.. أشعر بالخجل من نفسي ولا أعرف ماذا أفعل كي أندمج في الصورة التي أمرُّ بوسطها.. أشعر بأني عجوز مُنتهٍ.. أتمنى فرصة أخرى.. كل هؤلاء الشباب الفاعلون. وأنا؟.. لو سألوا طفلًا ذكيًّا ماذا يريد أن يصبح حين يكبر، لجاوب، لا أعرف ماذا أريد أن أصبح حين أكبر، لكني أعرف ماذا لا أريد أن أصبحه، لا أريد أن أصبح أنا! كل هذه السنين الضائعة. أنا في جسدٍ لا ينتمي إليَّ. أصبحتُ ضمن الفرقة الشاردة التي تدفس في عروقها الأدوية والمخدرات، التي تتحطم أمام السلطة أيًّا كانت، الذين يتألمون بلا روح، أطفال بلا أهل، ليبراليون دون حرية. المتلصصون. الشغفون. الرومانسيون. الحالمون بضراوة. المتخيلون الدقيقون. واسعي المخيلة. الذين يفوق صبرهم الكل وإخلاصهم أقوى من الحجر.

من يستمنون على المذيعات والممثلات ونجمات البورنو وصديقاتهم وزميلاتهم وكل كليلة. الخاسرون الحقيقيون الذي يضيعون حياتهم محترقة في أمل لا يُمس. المتطرفون. الهائمون بالنهار. المرضى بعمق. الملتَوون. البليغون، العمليون. الضد - اجتماعيون (رغم أدبهم). المنحرفون.. أنا لستُ منحرفًا يا ليلى. أنا مُعطّل. هذا المكان يقتلني ببطء وبرود وحياد..

الوحدة صعبة داخل الجامعة. جدرانٌ بيضاء بلاستيكيّة وممرات صناعيّة. أبحثُ عنكِ بلا هدف، فأنا لا أعرف بالضبط ماذا أفعل إن وجدتك، ولا كيف أضمّك بحنان وأشرح لكِ حبي. أشعر مع كل خطوة باستحالة المُهمة، واليأسُ يتصاعد داخلي. باردةُ الجدران وصلدة وبلا بروز وأنا وحيد بينها.

أجدكِ أمامي في نهاية الممر واقفة تتكلمين مع زملائك وتشرحين شيئًا ما أو تبلغهم بموعد امتحان قصير قريب، أقترب في هدوء وأقف أمامك فتقولين لي بنبرة عادية بأنك لحظات وتكونين معي. أشعر بلحظة بأن عليَّ أن أغضب لكني أقف في سكون وألتف لأضيع وقتًا بصب كوبٍ من الماء من حاوية المياه من تلك المتناثرة في الأركان على أنحاء الجامعة. وقبل أن أصب لنفسي تقولين لي من ورائي "نعم يا سيدي؟" لا ألتفت أو أجاوبك بل أملأ كوبي البلاستيكي لآخره في هدوء ثم أشربه، فتردفين: "أنا مستعجلة وعاوزه أمشي ورايا توتوريال"

أنظر لك في هدوء وأقول بنبرة حاولت أخرجها بدون انكسار فجاءت هادئة وخفيضة أكثر من المفترض: إزيك.. وحشتيني. لكنك تحركت من أمامي وأنتِ تحملين كراستك السلك وشنطتك والمقلمة الكبيرة في خطواتك الحازمة المعتادة وقلتِ بارتباك: لازم أمشي دلوقتي.

التفكير في المستقبل لا يزيدني إلا بؤسًا: يبدو أننا سوف نظلُّ نعدو دومًا تجاه ما يتساقط من جنبات رءوسنا. يقولون يا ليلى إن حكيمًا قد صمت مدَّة دهرٍ، فلما أتاه أتباعه حزانى قائلين: قطع الله سرَّ من أصمتك ونفاه في جحيم من سكونك. ترفّق بهم، وقال: أراض الليل لا تحدثني. النومُ موتٌ صغير. والموتُ نومٌ بلا أجنحة. صفعةٌ على وجهكِ الصغير لكي تقبَلي الحياة كما يجب. الحياة صفعةٌ على شفاهكِ المليئة. عنفي يا ليلى هويَّة خرجت دون استئذان: ما أكرهه هو جزءٌ مني. ما ساءني تحديدًا هو هشاشة كلِّ شيء. يومًا ما سأغتالك بأسناني العارية لصمتك الجميل المُعذِّب. حينها سينفرط عقد جسدك وتصبح الشهوة بوقًا تدوي من خلاله ثرثرات عقلك الجشعة. الزمنُ الذي يمرُّ في خطٍّ مستقيمٍ، السنوات التي نعدُّها بيننا، هي عدد الحجارة التي كانت في جيوب الكاتبة فيرجينيا وولف وهي تغمر نفسها بالماء. والحب كلمةٌ لا تقع سوى بإصابة رأسها بإحدي تلك الحجارة في مقتل. الحب بالفعل احتفالٌ على جثة

أحدهم، كرنفال مشترك على موت. صباحات لا تنتهي دون خفَّتِكِ. ماذا أفعل بالشهوة؟ سأحوِّلها إلى كُراتٍ كرستالية خفيفة وأفرقعها في الهواء!

لم أدر إلا وأبر الضوء تخترق مقلتيَّ من شمس الصباح. كل الأشياء تنطبع ببقع حمراء وبرتقاليّة وسوداء. لكن مع تلك البقع حدثت المعجزة، في نهاية وقت قضيته في حالة أقرب إلى الانتظار؛ انتظار لشيء ما يحدث داخليًّا أو خارجيًّا، لا أعرف كنهه وأقلّبه بالتفكير كنوع من الصبر الساذج، متشبثًا بأمل لا أصارح نفسي به، أمل أن يحدث شيء خارج توقعاتي. هل ما كنت أنتظره هو معجزة؟ آمنتُ بالفعل بالمعجزات وبأنها من الممكن أن تحدث لي. كيف لا مع كل هذا الخوف في عروقي: أن أتعفَّن في مكاني بانتظار شيء ما يخرجني عن نفسي.

10

يقول القديس أُغسطينوس: المعجزات ليست ضد الطبيعة، لكن فقط ضد ما نعرفه نحن عن الطبيعة.

المعجزة التي حدثت، ولم أعرفها ضمن فهمي لطبيعة قانون الأشياء، هي أنك أرسلتِ في السادسة والنصف صباحًا رسالةً نصِّيَّة تسألين إن كنت جادًّا في ما قلته ولا أتسلى.

ملاك! قفزتُ من السرير ورددتُ فورًا بأنني جادٌّ. بعد نصف ساعة كتبتِ في اختصار شكَّكني حياده أننا لا بد أن نتقابل ونتكلم. هذا الصباح معجزي. السماء سلام إلهي. أحب الأشجار الصامتة. هذه الأشجار، كل الأشجار. كل إنسان! استيقظت أمي فقمت وقبلتها على وجنتها وجبهتها.

بعد النصف غداء، مشيا معًا في شارع دي لاركيد، ثم بعدها إلى كنيسة المادلين، وجلسا على سلالمها. كانت دورا ترفض الاستماع. تريد أن يتزوجا. قال لها إن ذلك مستحيل. على الأقل كنسيًّا. غضبت. ولسبب ما راقه غضبها المستحيل. شعر بأنه يمثل جوهرها؛ كانت غاضبة ولا تنظر إليه وهي تتحدث. مثل عادتها وهما أطفال. حاول الفكاك منها في أكثر من محطة، ليعود في كل مرّة إليها. هذه معلومة مهمة عن فريدو. أنه قادر على الاستغناء. لكنه لم يجرب نفسه معها بجديّة حتى الآن. كان يستسلم دائمًا إلى إغواء ضعفها. في المقابل كانت

ترعى بظلالها النساء الأخريات. الكيمياء الجسدية بينهما مجنونة. هزّات جماعهما المتتالية معًا تؤكد ذلك. اتجها للمقهى الموجود على الرصيف المقابل للكنيسة. تصميم الكنيسة الكلاسيكي، التي اعتبرها نابليون معبد المجد، كان مسيطرا على المشهد. شارع دي لا مادلين زوّد المكان بإطراء جذاب، كل شيء يبدو جميلًا. منظر البنايات السكنية على البعد من خلال أفرع الأشجار التي كانت أوراقها تتساقط، الكلب الراقد فوق أرضية الشارع المرصوفة بالحصى، يخمش نفسه بتكاسل شديد. جاء الباص وحملهما. وقفا داخله متجاورين كأخوين يمسكان نفس العمود، يتأرجحان هذه الناحية وتلك، ناظرين كلٌّ إلى وجه الآخر كالغرباء. شخصيًّا يا ليلى، أكثر ما أحببته هو الدموع التي لمعت على خد دورا في المطعم. ببطءٍ تنزلق على الخط السفلي لعينها الجميلة. وفريدو سائرٌ نحوها لمناداتها بهمسة في أذنها وربتة خفيفة على كتفها وهي ترسم بقلم الروج الأحمر على المنديل الذي على شكل مثلث. منتبه تمامًا لميلة رأسها قليلًا جدًّا للأمام وقليلًا جدًّا لليسار، الناحية التي أتى منها، ينظر إلى جمال عنقها، أخيرًا يهبط إلى الهاوية، يتمتم بخفوت صوتًا يكاد يُسمع. ويده اليمني تلمس قميصها الأزرق الفاتح طويل الاكمام الذي أخرجت منه ساعديها لكي تبرز الحلية المعدنية المزخرفة على معصمها جليّةً تتناغم مع الحلق الدائري المعدني الكبير المتدلي من أذنها يلامس عنقها. الحلية غريبة الأطوار مثل كل حليها ومثلها. فور دخولهما الشقة. واسمحي لي يا ليلى أن أتابع

لكِ حكي ما يحدث داخل شقتهما. دخلت دورا الحمام وخلعت ثيابها ودخلت البانيو. فتحت حنفية مياة الدش برفق ثم وقفت تستحم. بدت كأنها مانيكان معروض للعب الجنسي، خلع فريدو ثيابه ودخل البانيو وقبلها قبلة طويلة يتذوق فيها شفتيها ويمص لسانها، ويهمس في أذنها بأنها مانيكانه، يمسح ببطء أكتافها وجانبيها حتى ينزل إلى وسطها ويقبض عليه بقوة لينشب أصابعه في لحمها الطري. تبدو منحنيات جسدها كأنها قطعة من العاج ستثقب تحت ضغط أصابعه تحت الماء. صورتها في المرآة كانت تحت رحمته؛ شد شعرها الأسود وأدراها بعنف فصرخت. بحركة سريعة دخلها من الخلف فتأوهت بعمق في شهوة غائرة. ضمها إليه وهو يوضّح أنها ستدفع ثمن نزع حاجبه. أقسم أنها ابتسمت وهي مغمضة العينين يا ليلى. ارتطام اللحم تجاوز صوت المياه الساقطة على جسديهما من علٍ. بعد إنهاء الحمام وقفت مبللة تنظر إليه صامتة، فملس على شعرها المبتل، واحتضنها وحملها إلى السرير وهي تتساقط منها قطرات المياه، لينقض عليها مرة أخرى ويقبلها في كل جزء فيها ظاهر وباطن. ثم بدأ صفعها بعنف وهي تصرخ في نشوة.

انتظرتك ساعة كاملة ساورتني فيها الشكوك بأنك ستتصلين لتعتذري عن المجيء لأنك لا تردين على اتصالاتي. لكنك في النهاية جئت معتذرة لزحام الشوارع في مصر الجديدة وأنك ضعت في الطريق. دخلنا معًا مقهى كوستا الشهير بفناجينه كبيرة الحجم بشكل مبالغ فيه. جلست مبتسمة تسأليني ماذا

فعلت في امتحانات نصف الترم. جاوبت أن الامتحانات جاءت صعبة وليست من المحاضرات. أصعب حتى من العام الماضي. طمأنتني أنه لا زال هناك فرصة إذا اهتممت بأعمال السنة والامتحانات النهائيّة. كان الأمر غريبًا أن تقولي لي هذا وأنا أكبر منك وفي عامي السادس. طلبتِ كابتشينو وأنا أيضًا، لم أقدر أن أنتظر أكثر من ذلك فقلت بدون مقدمات إني جاد. صمتِّ واختفت ابتسامتك كأنك تستعدين لنقاش جدّيٍّ وقلت إنك طلبتِ مقابلتي لكي تفهمي وجهة نظري لا أكثر، فأنت حاسمة أمرك. توترت وشعرت بخيبة أمل كبيرة حبستها بداخلي سريعًا. أضفتِ أنه بجانب الموانع الدينيّة فأنتِ تطمحين للتدريس في الجامعة وذلك الأمر سيؤثر على قبولك. شعرت فجأة أن الجامعة وحش ضخم يقبع في الصحراء يلتهم حياتي وكل طرف متحرك مني. وحش يضحك بشذوذ جنوني كرهته أكثر مما أكره من كل قلبي. قلت في محاولة ينتهشها اليأس الكامن أن من الممكن أن يبقي الأمر سرًّا بيننا. هززت رأسك نافية (كم كنتِ صارمة!) وقلت إنك لا تفعلين شيئًا تخجلين أن تعلني عنه. - طيب أنا المفروض أعمل إيه؟ - تشيل الموضوع من دماغك. - يعني انتي جايباني هنا عشان تقوليلي كده؟

حدستُ أنك شعرت بالتناقض الكبير في موقفك لأنك بنبرة اعتذارية قلت أنك تريدين أن توقفي الموضوع بطريقة لطيفة وودّية. سألتك هل دخلت في علاقة من قبل، دون أن أعرف أنا نفسي سبب السؤال. صمتِّ قليلًا تفكرين ونفيتِ الأمر. لم

يحصل أن دخلتِ في علاقة. قلت أن نجرب إذن ونجعله سرًّا بيننا. توترت وعلت نبرة صوتك بالرفض كأني أهنتك. كنتِ حازمة وراسخة. الذي عرفته بعد ذلك أنه مجرد وجه من وجهي شخصيتك العجيبة. حتى وقتها شعرت بالصراع داخلك وقررت أن أتمسك بالجانب فيكِ الذي جاء بك لمقابلتي. - طيب شوفي الصيغة اللي تريحك. - نخلينا أصحاب زي ما احنا.

رأيت بوضوح مفارقة استخدامك كلمة أصحاب رغم أننا لسنا كذلك في الحقيقة. بل علاقتنا توصف بالأحرى أكثر بأننا زملاء. شعرت أنه انتصار جزئي خائب. وتصاعد اليأس بداخلي في تلك اللحظة أكبر من أي وقت مضى منذ جلوسنا معًا. قررت مدفوعًا أن أهاجمك. - إنتي مش بتعرفي تحسي ولا تحبي عشان كده عمرك ما دخلتي في علاقة. لدهشتي تراجعتِ بظهرك على الكرسي الكبير. كل شيء في كوستا كبير. انكمشت ووضعت أصبعك في فمك بحركة عفويّة. تلك الحركة التي أشاعت فيّ حنان شديد فاعتذرت لك. قلتِ بصوت لمحت فيه اكتئاب عميق. - خلينا أصحاب.. أنا لازم أمشي. دومًا لا بد أن تمشي. هذا أيضًا عرفته بعد ذلك. إنه جوهرك الأصيل، جوهرك الذي شعرته لأول مرة في هذا اليوم.

بعد أن رحلت بسيارتك الرماديّة، وجدتُ نفسى وسط خواء أسفلتي وعمارات كبيرة ومصابيح إضاءة صفراء. مرة أخرى، وحيدًا، في الشارع.

11

لمسني يا ليلى ذاك اليوم الواقف بجانبى في الباص المزدحم بكتفه فاعتذرَ لي. فكرتُ لحظتها: إذا كانت تلك الخبطة الصغيرة في المواصلات المزدحمة يُعتذر عنها، فماذا عن تلك الآلام المهولة التي تملأ ساعات الليل؟ أيّا كان، عندما سألت زملائكِ عنكِ، أردتُ أن أقول أنكِ كنتِ حبيبتي، لكن كلمة "كنتِ" جرحتنى. صحيح، أمنّي نفسي بأن أراكِ مصادفة، حتى لا أذلُّ نفسي برغبة شديدة في مكالمتك لطلب رؤيتك. مزاجي الآن كفيلم أبيض وأسود قديم لكن شيئًا ما حدث له وأحرقه داخل معمل التحميض. لا تكترث. سأكون بخير. سأكون بخير. سأكون بخير. سأكون بخير. هذا ما اعتدتِ ترديده لي بعد كل نوبة اكتئاب أو غضب. أتمنى أنكِ كنت هنا.. لترى ما أراه، لتشعري بما أشعر به، ربما كتسويةٍ أخيرة. أنا مكشوف وعارٍ في مهبِّ الليل، وفي حالة تجعلني أريد أن أقوم بإيماءة التعري الأخيرة وأفصح عن عيوبي التي دسستها لكِ متقطّعة على مرات عدّة وسط الكلام ولم تلحظيها، لأننا نحب النماذج التي نرسمها لأنفسنا لا ما نراه ونعيشه: تزورني يا ليلي حالات قلق وفزع بلا مبرر، مؤلمة جدًّا، أحيانًا مميتة. أخاف الأماكن المرتفعة، البعيدة، الأماكن المكشوفة على الأفق، المباني الضخمة، لهذا أكره المولات مثل سيتي ستارز، فكلما دخلته شعرت بالجزع، خصوصًا مع محيطه شبه الصحراوي، هذا التناقض يجعلني أنفر منه أكثر. البشر في علب سردين محفوظة

بماركات لاتينية، يستهلكون ما أريد لهم أن يستهلكوه، يتحركون، موسيقى خفية تسيطر على إيقاعهم، هؤلاء التافهون بحيواتهم التافهة المؤقتة، جزع، ماذا أفعل على كوكب الأرض؟! ما هو الموت؟ أين سأكون وكيف ومن سيكون معي؟ لا أريد ترك أهلي! مكوك فضائي ضخم هي الكرة الأرضية، مثل سيتي ستارز، ناس تروح وتجيء وتشتري وتبيع وتعاكس وتضحك وتتجشأ. نحن كائنات فضائيّة بالمعني الحرفي للكلمة. مشهد المكاتب المتراصة بفواصلها المعدنية أو الزجاجية في الشركات وقاعات الجامعة، لهذا أكره الامتحانات في القاعات الكبيرة ورفضي الشديد لفكرة العمل بعد التخرج كموظف في شركة: جرذ. ترس في آلة. جحيم التكرار والتشابه. من أنا: ضآلةٌ لا تنتهي مع نقاط متشابهة، وقطعة جبن إضافية تُرمى في نهاية الشهر. أداؤك على لوح الموظفين يشير للاستقرار لا التقدم، ينبغى عليك بذل مجهود أكثر، لا بد أن يرتفع السهم!، تخلصت من خوف المصاعد والضياع والأماكن المغلقة بنسبة كبيرة.. باركي لي.

لكن أن تكوني وحيدةً، هو ألا توجد رسائل مهمة تصل. أن تكوني وحيدةً، هو أن تحتفظي بشحن الهاتف لأيامٍ عديدة. يمكن أن ينفخ الله في صورتها وتصير أسبوعًا. أن تكوني وحيدةً، أقول لكِ، هو العيش على الذكريات في انتظار شيء لا تعرفيه، شيء لا يفهم من خلال انتظاره. الأمر الماكر أن ما

تنتظرينه جاء في الماضي، لا آتيًا في المستقبل، وفي هذا كل الفرق. أنتِ لا تقتربين من شيء غامض لا تعرفينه كهدف، بل تبتعدين من الخلف عن شيء كعلامة محددة قسمت حياتك إلى نصفين. نظرتك للعالم والأشياء تختلف، أصبحت في زمن ما بعد أخروي، القيامة قد قامت بالفعل وأنتِ في حياة جديدة، أقل سرعة وصخبًا وتوترًا، لكن أكثر عمقًا ومعرفة وحكمة. الأمر يختلف كثيرًا فمن تنتظرينه قد جاء في الماضي لا لم يصل بعد من المستقبل، وأنه قد صنع فجوة في صدرك، هو نفسه، إذا عاد ثانية في عوده الأبدي لن يعرف أن يملأها، لأنه أصبح شيئا آخر. حزينٌ أنا الآن لأنني لم أر طفولتك ولا وأنتِ ذاهبة للمدرسة في أول يوم، ولا أول مرة فاجأك الطمث فيها وأصبحتِ امرأة يفخر والداكِ بها، ولا حين نجحتِ في الثانوية، لم أحتفل بنجاحك كعروس شاطرة.

حين أنسى أن آخذ الدواء توحشيني. لن أكذب. لماذا لم تمصي لي قضيبي أبدًا؟! أكلمكِ فقط مرة أخرى لأنهي رصيدي. ليس عندي ما أقوله. فكرة أن أكون بلا رصيد للكلام، أن أكون وحدي بائسًا وأنتِ هناك؛ على الطرف الآخر من المكالمة الميتة أو العالم. أن أكون مُفلسًا بلا حَول وعلى شفاهك آثار ابتسامتك من مزاحي. أن أكون مغلوبًا على أمري أنتظر أحدًا، أي أحد، ليكلمني لأتكلم. مقفلٌ فمي في رهبة الصمت الذي

حللته من أجلكِ. أكرهكِ وأراكِ في الحلم كالآتي: تلبسين عضوًا صناعيًّا حول وسطك النحيل وتداعبيه أمامي مُتشفيّة، تأمرينني أن أنزع ثيابي وألتف، وحين تنقضين على محاولة إدخاله أقتلك بكفيَّ العاريين هكذا، ثم أدخلكِ بدوري وأنتِ جُثة ميتة. لا أريد شيئًا، الكراهية والألم كفيانني صغيرا.

أقوم من على الشازلونج الجلدي كأني خسرت أمي في مرض أو متُ وأنا مسطح. تسألني محللتي الشابة إذا قد حدث لي تنميل أو وجع، وهي تتمطع مثل طفلة صغيرة صادقتها في أول علاجي وتحدثنا عن كل شيء ما عدا أسباب المجيء، تدور في أذني أغنية الروك السبعينيّة الطريفة تلك التي أسمعتها لكِ ذات مرّة. شُبيك لُبيك.. أنا مِلك إيديك. آه لك يا عيوني... سببت جنوني. شُبيك لُبيك.. منك وإليك. آه لك يا عيوني... سببت جنوني..

أود أن تستهلكني الفصول: بدماثة ضيّعت حياتي والظمأ الفاسد أظلم عروقي. من الصبر ذقتُ ما لن أنسى. صبرت صبر الإبل يا ليلى ودونى ع اللومان!

12

في الأسابيع التالية تقابلنا أكثر من مرَّة، رغم رفضك الحاسم تلك الليلة. كانت أغلب حواراتنا حول الحب والدين والجنس والمجتمع. متمسِّكة بإيمانك تحاولين اجتذابي إليه. ربما كنت تشعرين بالذنب. في الجنس كنتِ مقتنعة بشيءٍ واحد: الشهوة للرجال والعقل والعواطف للنساء. قررنا في لقائنا الرابع دخول السينما. أو أنتِ أردتِ ذلك. حسنًا، دخول السينما من أحد الأفعال الرومانسية لغالبية الناس، لكن منذ أن أصبح من إحدى فوبياتي، لم أستطع أن أتعاطف معه مجددًا أو أراه رومانسيًّا. بل أعلن في حسم كل مرة أنه يجعل الناس يتقابلون ولا يلتقون، لمدة ساعتين لا يقولون كلمة لبعضهم. مع ذلك وافقت على الفور بحماس لأنها تُعْتبر خطوة للأمام، مؤجلًا قلقي أو مواجهة قلقي إلى حين.

قطعنا تذكرتين لفيلم تشويقٍ أمريكيٍّ تجاريٍّ سخيفٍ. حتى وأنتِ معي، كان رعبي لا زال قائمًا من الدخول في مكان مغلق ومظلم وإشارة "ممنوع الخروج" الوهمية تشهر فوق رأسي. على العكس، توترتُ أكثر بسبب خوفي أن يظهر توتري وقلقي أمامك. نجلس في الظلام لنواجه أشكالا وأجسامًا هائلة الحجم في مسافة قريبة وبصوت مرتفع للغاية. كان الأمر مرعبًا حقًّا! تسارعت ضربات قلبي وخرج العرق البارد من أطراف أصابعي ومن كل جسدي. مسكتِ يدي المتعرقة في وسط الفيلم،

فخجلت لشعورك بتزيُّت يدي، لكن بدا الأمر أنك لم تلاحظي أو لم تهتمي. هدأتُ واندمجت مع الأحداث. فيلم تقليدي سخيف لكنه مثير للعواطف الساذجة. شحنة تفريغ الرعب في جسدي، بعد دفعة السلام والهدوء الأولى، تجعلني غاضبًا. صببتُ عدوانيتي على الفيلم بعد انتهائه. ابتسامتك جعلتني أفهم أنك تصورتِ أن عصبيتي منبعها صرامة فنيّة. لكن ما غفر له أمامي هو سماعي صوت الفشار في فمكِ. كنتِ تتحدثين بحصافة فارغة معلقة على الفيلم وأنا أكاد لا أسمع شيئًا.

في السيارة العتيقة المفككة شعرتُ أني آدم وأنتِ حواء على الطريق شبه الصحراوي. هو الطريق السريع الأول في رحلتي إلى الجامعة. كانت تنقصنا المأساة. غضب الرب. وقدمت لي فورًا على عرض الطريق تفاحة رقبتك برفعك وجهك لأعلى تتمطعين وذراعيكِ أعلى رأسك. قبلتك في تفاحتك كعلامة على رغبتي بنهشها. أنتِ أيضًا قبلت تفاحتي أثناء انهمارك عليَّ. شيء ما في أدائك، في همومك، جعلني أشعر بشبقك الشديد. أخيرًا وجدت الثمرة المحرمة، تقشعرين من التقبيل في العينين. - البوس في العين بيفرق. ظننتك تهزلين بداية الأمر، بالذات أنك قلتيها هكذا مثل الأغنية الشهيرة "البوس في العين بيفرق". إيجادي شيئًا محرمًا جعلني أعود مرغمًا في لذة لتقبيلهما بين الحين والآخر، فتطرفين في سرعة كأنك تجفلين من فداحة الفعل: "**قلت لك لأ!**". شيء داخلي يا ليلى كان يريد أن يكون كل ما في تلك العلاقة محرّمًا. كأني أنتقم من المجتمع بك. لكني

أكتشفت بعدها ما كان يثير جنونى حقيقة؛ صوت قبلاتنا ومص شفاهنا ولعق ألسننا. صوت أقرب للرضاعة أو شرب مياه. صوت مجرم في عربة قديمة مفككة متسارعة على الطريق. الشيء الوحيد الذي غمّني في هذه اللحظة المنتصرة هو أن قضيبي لم يقف بسبب الدواء. خوفي من أنك قد لاحظت ذلك جعلني لا أندمج وانشغل عقلي عمّا يحدث.

حين رجعت البيت شعرت بالرعب. أنا أترجم أي شعور قوي إلى الخوف والرعب. بعد تفكير عرفت أن ما كان مرعبًا بالنسبة لي هو إدراكي أن الحياة أصبحت حقيقية، ليست خطة أو تخيل. لا أعرف كيف أشرح هذا. لكنه كان إدراكًا مربكًا بالنسبة لي؛ أن ما أعيشه الآن حقيقي.. هل أنا وأنتِ في علاقة حينها؟ لا أعرف. أقول لنفسي ما كنا نفعله يشير إلى ذلك، لكن كلامنا نحن الاثنين طوال الوقت كان في الاتجاه المعاكس بالضبط.

13

العلاقة مع المُحلِّل ليست صداقة. ولا حب. ولا علاقة أسرية. إنها علاقة مدفوعة الأجر مُسبقًا. دعارة. تلجئين إليها حين تضعفين وتريدين أن تفرغي طاقتك وأنتِ عارية وقذرة. تتقابلين وتحكين لكنك لا تدفعين ثمن مشروب أو عزومة، بل تدفعين للشخص الذي أمامك. يمكن بسبب بخل وراثي اكتسبته من أبي كانت تلك الحقيقة معلقة خلف رأسي طول الوقت حيث تتم الممارسة المهنيّة على سُنّة فرويد ورسوله. جلسات التحليل تطرح الأسئلة ولا تقدم أجوبة.. صحيح، أن الجميع يطرح الأسئلة، لكنكِ تحتاجين وأنتِ سائرة في الشارع لأجوبة، تحتاجين وأنتِ في المواصلات لأجوبة. وأنتِ تتعاملين أثناء يومك. تحتاجين لأجوبة حتى تستطيعين شراء وجبة أو بنطلونًا أو تجلسين على القهوة مع أصدقاء.

ونحن خارجان من الغرفة غير متزامنيْن، أنا ومحللتي الشابة، أمسكتُ بمقبض الباب ثم تركته ونكستُ رأسي في الأرض وقلتُ في استسلام: تعبتُ. عندما رأتني على هذه الشاكلة، تأثرتْ. دفعت على وجهها إبتسامة وهي تقول: ألسنا في مسيرة معًا؟

آخر صورة نزعتها من حوائط غرفتي هي صورة العذراء بالزي الفلسطيني التقليدي. المفارقة المسيحية الكبري، شفيعة الأمهات، أم الله، عذراء! عذراء محجبة بوشاح رخيم تنظر في دعة بزنبقة

بيضاء كبيرة في يدها. علينا تعريف الهوية من جديد: شخص ما لا يريد التخلي عن الطفولة، يفاجأ، ويا للعجب، أنها سبب أكبر مآسيه! الرب أعطى والرب أخذ، فليكن اسم الرب مُباركًا.

حين تركنا بعضنا قلتِ لي إنني لا أعرف شيئًا عنك ولا أعرفك. صُدمْت.. لأني شعرت كم بدا قولك هذا صحيحًا؛ تحليل فرويد لظاهرة "حب التعري" هو أن المريض يحب التعري لأنه يريد في الأصل أن يتعرى من أمامه في المقابل، هكذا أنا؟ أريد أن أهوس بكِ لكى تهوسي بي؟ أفكر في بيكاسو ونسائه اللائى تحطمن بعد هجره لهن: فرناندي أوليفر، إيفا جويل، جابي ليسبناسيه، أولجا خوخلوفا، ماري - تريز فالتر، دورا مار، فرنسواز جيلو، جينيفيف لابورت، جاكلين روكو.. دورا مار كانت معه من ربيع 1936 إلى شتاء 1944، دخلت مشفى عقلي من فرط حبها له وعدم تقبلها واقع انفصاله عنها وتركه لها، رغم أن رجالًا كثيرين كانوا يتمنون فقط الحوز على اهتمامها. صليت: يا رب، دورا مار في حياتي ولن أجعلها تدخل مستشفى المجانين، لن أدعها تحتاج شيئًا..

أستيقظ صباحًا. أُعيد ترتيب الكتب والكراسي والطاولات. أحاول القراءة. أقتل نفسي أمام المرآة. أبكي. أجمع بقايا، أقذفها. أذكر الله. أقاتل وحوشًا خياليّة من الخوف المبهم. قراءة. أتصل لا لأتكلم بل لأطمئن. أو أستريح. أغضب من وضع وحدود الإنسان وضعافاته. أبكي أمام المرآة. أذكر ذكريات مؤلمة لأعذب نفسي.

أحاول مجددًا. ابتسم أمام المرآة. الجيران يصرخون. أخرج للشرفة وأنظر إلى العمارات المقابلة ونوافذها المغلقة والمشرعة. قراءة. ألم .ألم. ألم. ما هي الوحدة؟ من أجل النفي يا ليلى، لا بد للعقل أن يستدعي الفكرة المنفيّة، كل نفي يجلب الوجود: لا تفكر في الأرنب الأخضر، أخضر الأرنب، الأرنب أخضر، الأخضر يرتع الآن داخل رأسي والأرنب نزل إلى الحفرة. قلتِ إنك سترجعين عليَّ. لكنك لم تعودي تحبينني مثل السابق. نفيتِ. لكني أعرف. الرجل بجوار الجامعة وخرج من النافذة بثيابه الداخلية منتظرا القبلة.. يعرف. رمال الصحراء الممتدة في صمت تعرف. تلك التبريرات التي تجعل الوضع أكثر عبثًا تعرف. دكتور الجامعة الأجنبي المعجب بذاته المار على عصبية الحوار يعرف. الشهوة الميتة تعرف. جسدي يعرف. الفقراء الذين يجلسون بجواري في مائدة الرحمن الرمضانيّة ينظرون لي ويبتسمون في شماتة وتعزية يعرفون. أكلي وحيدًا يعرف. انتظاري المضحك يعرف. الهاتف الذي لا يرن يعرف. ترددك في الرد يعرف. وداعا.

أعلن بعض العلماء في الآونة الأخيرة أنهم نجحوا أخيرًا في تخليق خلية صناعية حيّة في المعمل. هل تهبينني خلية من تحت أظافرك؟ ستكون مثيلتك، وسأعلمها أن تحبني وتعشقني بجنون، ستقبلني كلما تراني، وتأخذني في حضنها حينما أُسهم بنظري في السماء. ستضحك وتبكي وتصمت وتهمس وتحلم من أجلي. ولكني لن أكون لها، لأنني لكِ فقط.

14

بعد القداس الصغير في كنيستي، قال الأب مقدمني للآخرين: شاعر يدرس الهندسة، وشاب باحث عن الحقيقة.

فوجئت بهذا التقديم، فلم تكن لي علاقة مباشرة بهذه الكلمة. الحقيقة. تنشئتي الدينيّة لم تترك مساحة لحساب المسافة بيني وبينها ولا كان همي وقتها التفتيش عن أوجهها وعلاقتي بهم. هل كانت هذه اللفتة، التي مفترض منها ضمنيًّا إبراز علاقة المعرفة والشراكة، قد توجهت إلى هدفها؟ قبل أن أفكر في إجابة السؤال جاء خبر ثقيل الوطأة أو حدث حالة إغماء. لا أذكر. ما أتذكره بوضوح أننا كنا صباحًا في القاعة الملحقة بالكنيسة نحضّر شيئًا ما. جاءتها نوبة فزع بسبب الأمر الذي حدث ونسيته. سألتْ الأب إن كانت تستطيع أن تتناول - كان القداس دائرًا بالداخل في مرحلته النهائية. تريد أن تتناول قبل أن تموت حتى تكون مباركة بجسد ودم المسيح داخلها. دخلتْ لوهلة ثم رجعتْ أكثر خوفًا واضطرابًا، محتارة في لوثة نزاعها الأخير. سألته مرة أخرى وبدأت تهذي بكلام غير مفهوم لكن الرعب جمّدها وخفس صوتها، صدرها يعلو ويهبط وصوت تنفسها من فمها واضح ثقيل. الأب، وهو في بداية الأربعينات، بذقن دوجلاس مهذبة، نظر حوله في سخرية إلى الخدّام وتكلم كأنه يحدِّث نفسه "أنا قلت كده؟! أنا ما قلتش في حياتي لحد إنه يقدر يتناول بدون حضور القداس". انحفر الأمر في رأسي

كمفارقة بين الحنان الذي يبديه طول الوقت باسم الرب المُحِب الذي يرعي خرافه، والقسوة البادية في التفاتة رقبته يسرة إلى الخدام ويمنة عائدًا إليها. بعد فترة من الوقت في وسط اليوم، اصطدمتُ بها تضحك وتتكلم بسرعة في صوت عال، كان لا زال بها الآثار التي أعرفها جيدًا لتدفق الإندروفينات بعد مَهْلَكة الأدرينالين في العروق، الذي يتركك مضروبة من عشرين شخصًا في وقت واحد ومتضعضعة بأثر فِعَاله بناء خمسة أدوار. تريدين حينها أن تبكي من الفرحة بالنجاة وأن تبسطي عضلاتك في محبة حقيقية للحياة. طلبتُ من الأب أن أحادثه على انفراد في موضوع مهم. قال لي أنه لا يملك وقتًا متاحًا الآن وعليَّ مقابلته صباح الغد في الحادية عشر.

ذهبتُ اليوم التالي وكنت قد تأخرت نصف ساعة بسبب المواصلات. أبي لا يترك لي السيارة العتيقة إلا للجامعة. بحثت عنه في كل مكان ولم أجده. سألت الفرّاش فقال إنه رآه منذ قليل. فرّاش عجوز عديم النفع يصدّر العته لمن يحادثه كنوع من الانتقام الخفي. لو هجم إرهابيون على الكنسية سيسلمها لهم باسمًا ليذهب ويبتاع أقراص طعميّة ساخنة لكي يفطر. صعدتُ إلى الدور الأعلى في مبنى الكنسية الملحق بها بعدما ضربت الجرس بجانب الباب الخشبي الكبير الخلفي. وجدته يقول بصوت عال كأنه يعلن للعالم رسالة مهمة: لا يمكن أن يتأخر الواحد ويعتقد أن الجميع في انتظاره! نزل وهو يلف حول جسده النحيل الطويل رداءه الأسود الكهنوتي مع التفاف

السلم ليقابلني، سائلًا بابتسامة وصوت حاول أن يكون حميميًّا: مش كده برضو؟ جلسنا في غرفة الاعتراف الصغيرة الجانبية، وحكيت له عن ليلى وشعوري نحوها وصراعي الداخلي الشديد. صمتْ فترة غير قصيرة ثم تحدث دون أن ينظر إليَّ، ربما كان يظن أن هذا يزيد من كلامه عمقًا. قال إنه لا يوجد حب خارج المسيح، وقال إن المسيح هو الحب الحقيقي. وقال إن الرغبة تخدعني. وقال إن الشيطان يظهر بهيئات كثيرة، وهو يحاربني الآن في هيئة الحب... الرغبة تخدعني؟ وما يعني هذا يا ليلى؟ الرغبة معناها في ذاتها، حتى لو طلبت شيئًا يتضمن الألم وعدم الأمان. ومن سيحمل إذن معي نفس الذكريات التي أريد أن أبقيها حيّة؟ شخص ما بذكريات جديدة أكثر رحمة وتَقْوى؟ أين هذا الشخص؟ وهل أريد مقابلته فعلا؟

وعدته أن أفكر فيما قاله لي، فابتسم وقال إنه واثق فيّ وفي محبتي للكنيسة والمسيح، ولعل العذراء ترشد ابنها إلى الطريق الصحيح، وصلى واضعًا يده فوق رأسي أبانا والسلام عليكِ مغمض العينين مثلي، وصرفني بسلام الرب مع شارة الصليب بضمّة الأصابع الثلاثيّة على شكل بيضاوي.

15

المشكلة لم تزل بل تتفاقم.

في ذهابي لمشواري الصغير، أصابني التوتر والقلق. انطلقت مسرعًا أتخبّطت في أرصفة وأحجرة وأشياء على الأرض حتى قطعت الفردة اليسرى من نعلي، وأصبحت أسير بفردة النعل المقطوع كعلامة مادية لحضور المشكلة. كنتُ قد اشتريته لأتشبّه برهبان الجيزويت الذين أحبهم. أنتِ لا تعرفين أني كنت أكلمك على الهاتف بصندل مقطوع. أقف في مكان شبه محاط بشجرة وزجاج محل عريق، لأن مكانًا بعيدًا ومكانًا مفتوحًا هو مكان مؤذٍ حقًّا بالنسبة لي.

عندما أغلقتِ ضربني رثاء الذات. جاء على مراحل: ابتسامة كبيرة على وجهي مع جملة نبستها. إيه المسخرة دي. ثم بدأ يجلو بؤسي على السطح شيئًا فشيئًا. أعرف الآن أنه السبب الرئيسي لتدمير علاقتي بكِ. تسكنين في الطرف الآخر من العالم. كم من اللقاءات لم تحدث بسبب هذه المشكلة؟ كنت أتحجج بحجج سخيفة وساذجة لكي تأتي أنتِ إلي. وأصاب بالذنب كل مرة تأتين. عددت الأشياء التي فاتتني في الحياة. هكذا يتجلى بؤسي ويسير معي في الشارع. لم أحك لكِ هذا أبدًا؛ اليوم الذي أردت له أن يكون أكثر ليلة رومانسية بيننا، ادخرت شهر كامل لأجل هذه الليلة، جلبت الورد وكتبت البطاقة بالإنجليزيّة: "الورود فَرِحْة لإنها أُهديت إليكِ". بعدها نذهب في عشاء رومانتيكي.

عرفتُ أن مطعمًا داخل منطقتي الآمنة يقدم العشاء على ضوء الشموع، وإذا كان حظنا حسنًا، سيكون يوم من الأيام التي يعزف فيها عازف الكمان للزبائن. قلتِ عندما جئتِ أنك لا تقدرين على المجيء معي فأنتِ من المفترض خارجة مع أصدقاء في مكان قريب وأن أبيك سيمر عليكِ في نهاية اليوم. رجوتكِ. ركبنا تاكسي وذهبنا إلى هذا المكان الذي به رفاقك في الرووف. ترجيتني. جذبتِ يدي أمام حارسي الأمن، نعم لم أقدر أن أطلع في المصعد، لم أقدر أن أصعد فوق الدور السادس. لا أقدر أن أجلس في مكان مكشوف عال. لم أقدر أن أصعد معك. لم تقدري أن تأخذي الورود معكِ. رميتهم أمامي في صندوق القمامة بجانب المصعد. لا زلت تترجينني وعذابي يزداد وباب المصعد ينغلق وأنت تختفين خلفه. خرجت من الباب. كلمت كل أصدقائي واحدًا واحدًا حتى لا أكون وحيدًا في هذه الحالة. كلهم غير متاحين. قررتُ أن أتعشى وحدي. أتعشى فول وطعمية وبطاطس صوابع، لأعاقب نفسي. لم أقدر أن آكل ورميت السندوتشات. مشيت حتى البيت. ساعتان من المشي والدنيا تزداد سوادًا أمامي كل لحظة. مشاكلي كلها قفزت أمام وجهي. أكثر ليلة رومانسية في العام أصبحت أكثر ليلة وحيدة فيها. كرهتكِ من كل قلبي.

حين فُرض حظر التجوال لظروف أمنيّة في البلد، رأيت الناس عقلها يضرب. أردت أن أقول لهم: تخرجون عن شعوركم من أجل حظر لأقل من أسبوع؟! هذه نكتة بلهاء،

سخيفة ومهينة! استطعموه ببطء وأروني عفانة أرواحكم! أنت جديد هنا. معلش. كلها فترة وهاتتعود. أهم حاجة ما تقاومش. كل ما تقاوم أزمتك هاتزيد. سيب نفسك خالص وسيب الوقت يمر. ما تقعدش تلوم نفسك على الحاجات اللي هاتعملها أو مش هاتعملها. اهدا وما تتوترش. أنا مثلًا صنعت لنفسي حبيبًا افتراضيًّا أسميته إيما زونز. هناك 87 فائدة لوجود حبيب افتراضي لكني لا أتذكرها يا ليلي. لكن دعيني أكمل لكِ قصة فريدو ودورا. قصة باريس. تتابعينني؟

كل يوم تخبر دورا فريدو قبل ذهابه للتدريب أن يحافظ على نفسه، بنبرة حنان تدوي كتهديد؛ دورا مهووسة بالموت وترتعب منه. تفكر فيه طوال الوقت وتلتذ بتخيله والحديث عنه. تحكي عن جنازتها وأين ستقام ومن سيحضرها وماذا سيقال في تأبينها، وكيفية تحللها، وأي أجزاء من جسمها غنية بالبروتينات والدهون ستتحلل أولًا. تستعجب باستمتاع من حقيقة أن الدود الذي يخرج لينهش الجسد موجود أساسًا وكامن في معدة الواحد. حضور الموت كجانب ثابت لدورا مرعبًا وطاغيًا مثلما كان حضور الحياة فيها. ينذهل فريدو من وجودهما هكذا معًا بهذا الشكل الغريب والحاد فيها. لم لا أتخلص من هذا كله؟ يفكِّر فريدو، لم أنا مسئول عن عذابها؟ في وسط التدريبات تهاتفه لتطمئن عليه فيغلق بعصبية قائلًا إنه مشغول وغير متفرغ لعبثها. يشعر بوميض بعيد من الندم لصياحه في وجهها لكنه سرعان ما يطرده من رأسه. يعيد

متتالية الرقصة من البداية. يعرف أن دورا تأتيها أصواتٌ وخيالاتٌ وتكلم أبويها كطفلة صغيرة وتدخل في نوبات من الصراخ والعنف الهستيري. وبالفعل، حين دخل الشقة وجد حوامل خشبية محطمة وألوان الزيت مبعثرة على الأرضية والفُرَش وعلب الألوان متناثرة في كل مكان. أطباق وكئوس محطمة وكتب مقلوبة على وجهها وأوراقها متناثرة، الأثاث القليل والسرير والوسائد مفرغين من حشوهم. لوحات تفوق حجمها مرتين وثلاث مرات ممزقة بوحشية وغل. وجدها منكمشة في زاوية تهذي بصوت مرتعش ويدها على رأسها وركبتاها مضمومتان إلى صدرها. اقترب منها فصرخت فجأة فنُتركرد فعل إلى الوراء. قذفتْ بثقالة ورق رخاميّة تستخدمها لتثبيت اللوحات ناحيته فأصابت حاجبه الأيمن وأعلى صدغه فسال الدم على وجهه وأغرق القميص الذي يرتديه. تمالك وعيه وبحث عن الدواء في كل مكان ولكنه لم يجده. رمت الأدوية مرة أخرى. عظم قورته يؤلمه بشدة ويشعر بدوار وهروب الوعي منه. هاتف الطبيب فقال له أن يجلب لها دواءً آخر في التو، أبلغه أنه لا يستطيع تركها بمفردها على هذه الحالة، وهو ممسك بقماشة مسح الألوان يسد بها الجرح بلا فائدة. نصحه الطبيب بمحاولة تهدئتها وشراء الدواء وأعطائه لها في أقرب فرصة. اقترب منها فلم تقاوم هذه المرة. ضممها إليه وهي ترتعش كلها كفرخ ذُبحت أمه وتبكي بنحيب مفجوع. هدْهَدها حتى سكنتْ ونامتْ.

بعدها بيومين. كان الشارع الواسع في وسط باريس هادئًا نسبيًّا. وتدفق مستمر من الناس ثابت يمر فيه. إلا أنه حدث اضطراب فجأة في المنتصف أربك هذا الهدوء والتدفق، وبدأ المارة يأخذون اتجاهات عصبية ملتوية بنظرات محتارة، صانعين دائرة صغيرة من الفراغ في المنتصف، يخرج منها صوت صراخ حاد وعال يمزق السكون - الضوضاء؛ امرأة صلعاء بفستان سهرة أزرق تزأر كوحش مجروح وتمور كالبكماء وهي تستلطم وجوه الناس في كل الاتجاهات حولها؛ تصرخ بعينيها الضفدعتين وتفتح فمها على اتساعه دون صوت. يخرج الصراخ متأخرًا لحظات، حادًّا رفيعًا وعاليًا جدًا = آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآ. تنتهي الصرخة ولا تزال عضلات وجهها بنفس وضعيّة الضيق والاستنكار التي تبدو بصورة ما طفولية. كان إنسان عينيها لا ينظر إليك بصورة مباشرة مثل الحيوانات البدائية، والصرخة، مثل الحيوانات البدائية أيضًا، موجهة إلى الجميع ولغير أحد - آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآ، وجهها أحمر من الدم المضخوخ فيه، زاد قبحه العبوس وحركة إنسان العين السريعة يمينًا ويسارًا إلا مواجهة الهدف، كأنها تبحث عن فتحة للهرب والضيق والاستياء يزدادان فتخرج دفعة أخرى من الصراخ العالي المدوي له رنّة مزعجة في الآذان - آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآ، متأخرة عن فتح الفك بأوقات تصل إلى عشر ثوان كاملة - دورا.. أهدئي قلي.. - آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآ، يقف فريدو متجمدًا أمام هذا الصوت غير البشري. هل لاحظت أن الحيوانات وهي تحارب أو تأكل فريستها

بأنها لا تنظر إليها مباشرة، ولا إلى مصدر ألمها حين تتألم، حتى لو كانت في مجال بصرها؟ - آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآ.. ألِف فريدو نوبات دورا أثناء انتكاساتها. لكن تلك أقساها وأبشعها. هو مسئول جزئيًّا هذه المرّة. كان عليه ألا يخبرها يا ليلى. خصوصًا بعد ما فعله حين كان الوضع معكوسًا. كان عليه ألا يخبرها بقرار الرحيل القاتل. بعد ما كان بينهما. بعد ما كان بيننا يا ليلى.

16

يمكن أن أحتمل أيَّ شيء. إلا هذه الفكرة. أن تساوي الرغبة عندي الحسرة. تركت الحب أخدت الأسى، تغني فيروز. أفتح الخزانة الصغيرة خلف باب الحمّام وأخرج علب الحبوب المنومة. أفرشهم على الغسالة بجانبي. سحابة بيضاء على أرضية بيضاء. أكمش كومة بقبضتي وأفتح الصنبور أمامي. أنظر إلى المرآة وأتأمل وجهي. تتحرك يدي لا إراديًّا و تدخل إلى المرآة تعدل شعري المشعث. هذه العين. أرمي الحبوب في الحوض. أغلق الأجزخانة. أنزع العين. أرمي العين على السقف فترتطم به وتسقط في فمي.

من حقِّك أن يراودك سؤال لماذا أكتبُ لكِ.. أكتبُ لكِ لأني كالدابة لا أفهم شيئًا.. أو ربما.. عليَّ القول، عند حد معين من الخوف لا يوجد أعداء. عند حدٍّ معين من الوحدة لا يوجد شخص منفِّر. في ساعات الليل الكئيبة تلك أتصور حزني قبضة أضرب بها الحائط لأحفر فجوة به، أو أضرب بها شيئًا ماديًّا أفتِّته تمامًا. الشيء الذي يصبرني في هجمات الحزن هذه أني لو سأختار بينها وبين الذعر سأختار دوما الحزن.. أتخيلك تقفين ورائي تمامًا. وكنتُ قد صدقتُ هذا الوهم حتى أنني أكره الالتفات والنظر ورائي خوفًا من أن تختفي. بذلك أكسب لحظات إضافية قليلة من السعادة والدفء. يتحول هذ الوهم في عروقي إلى سُمٍّ يحرق معدتي. الوحدة والغيرة اليائسة قد

فصلتني عن الآخرين. كيف يمكنني اجتثاث الألم والرعب؟ روحي تهشم لكن من غير ضجيج؛ كبلورةٍ تقع على سجادة لتتفتت في صوت مكتوم؛ صوتٌ يتداخل مع أصوات كثيرة أخرى في قِدْرٍ.

يصبح الغياب هو الوجه المحدد للحضور. الأشياء التي تحدث حولي متعظمة بالدموع. أردتُ أن أؤمن أن بالحب كل شيء يُهزَم. بالفعل، لا يوجد سبب كي تأتي إليّ والدنيا ظلام، لا يوجد سبب. لكن، لماذا ينمو الغضب بداخلي ويبتسم كوردة؟ أحيانًا أفكر أن معنى أن يكبر الواحد هو أن يقبل الهزيمة. لا أعرف ما هو الحب، أنا لا أستطيع أن أحدد، ضمن أشياء عديدة في الحياة، معنى أو تعريفًا واضحًا للحب. كيف يمكن أن ينقلب شعور جميل وغنائي كالحب إلى وسيلة مبتكرة لتعذيب الذات، إلى حرمان ولوعة وغِل، بل وإلى وسيلة نفّاذة لمعرفة الأشياء؟ كيف يمكن أن تستمري في لعبة لا تعرفين كيف تتغير قواعدها وماذا تعد لك؟ تعرفين قصة الملك سليمان الشهيرة، عندما جاءته امرأتان بطفل رضيع وادعت الاثنتان أن الرضيع طفلهما، فما كان من سليمان إلا أن قال أن الطفل سيقسّم جزئين على الامرأتين، هنا قالت أمه الحقيقية - التي تحبه أكثر بطبيعه الحال - إنه ليس ابنها وإنها لا تريده. ما أبهرني دومًا في القصة ليس ذكاء الملك سليمان بمقدار محبة تلك الأم لطفلها لدرجة أنها تتخلي عنه، لدرجة أن تتخلى طواعية عن أمومتها وحملها تسعة أشهر لا لشيء إلا

حبها له. هذه خسارة واضحة للذات، لكنها تحمل أيضًا من الحب ما هو أكيد. كتب ديستوفسكي إلى شخص ما يقول: "لو استطاع أي شخص أن يثبت لي أن المسيح خارج الحقيقة، ولو الحقيقة بالفعل تستبعد المسيح، أفضل أن أبقي مع المسيح لا الحقيقة". وهي في الواقع معكوس مقولة اللاهوتي القديس توما الأكويني في القرن الثالث عشر، الذي يقول أنه لو اكتشف الواحد أن المسيح ليس هو الحقيقة فواجبه الأخلاقي أن يتبع هذا الاستنتاج ولا يؤمن بالمسيح. هذا تعريف آخر للمحبة: أنا معاك مش مع الصح. رفض الحقيقة فقط لإبقاء ما تحبينه. أو كما جاء في فيلم كوميدي قديم قال فيه الممثل للسيدة: من ستصدقين: أنا أم عينيك؟ الحب يا ليلى ليس الحقيقة. الحب عكس الحقيقة، لا تأخذي هذا كتعريف للزيف أو الوهم، بل التضاد له معنى أعمق، إنه يلغي الحقيقة من جذورها، يرفعها إلى مستوى حيث أهميتها مع مكافِئها المضاد لا وجود لهما. الحبُ هو رمي الحقيقة بعيدًا مع معرفة أنها حقيقة، وبهذه المعرفة المصاحبة تهزمها. سطوة الحب تحديدًا هي ما قاله فوكو عن هيجل: "علينا أن نحدد إلى أي مدى ضد - هيجيليتنا هي ربما واحدة من خِدَعه موجهة ضدنا، في آخرها يقف بلا حراك ينتظرنا".

أنتِ تقفين في الزاوية المظلمة، تضحكين على محاولاتي للدفاع عن نفسي أمام سطوة الحب، تهزين رأسك في حكمة لتعلني حكمك النهائي على الطفل الصغير الذي يعتقد أنه

يمكن أن يهرب. يكمل فوكو: "الهروب فعلًا من هيجل يتضمن تقدير الثمن الذي علينا أن ندفعه لنفصل أنفسنا عنه. إنه يفترض أننا على وعي إلى أي مدى هيجل، بدهاء ربما، قريب منا؛ إنه يتضمن معرفة، تسمح لنا فيها أن نفكر ضد هيجل، فيما يتبقى هيجليًّا". المحب طفل يعمل على روحه لكن سعيد أنه نائم ودافئ، رغم معرفته أنه حين يستيقظ في الصباح سيأخذ علقة بأيدٍ باردة. وأنا نائم ودافئ يا ليلى بعد كمشي سحابة الحبوب أحببتُ ثلاث فتيات. كل فتاة تشرب كوبًا من الحليب الصافي كل صباح. مرضتْ الفتاة الأولى فأصبتُ بالحزن. غام حزني حتى طغى على حبي للفتاتين الأخريين. جاءت الفتاة الثانية ممسكة بكوب نصف فارغ نصف ممتلئ من السائل الأبيض، أشارت لي بأن أشرب حتى يُفَك كَربي. رفضتُ الكوب والتقمتُ ثديها حتى تبرد ناري. لم يهدأ صدري وبقي الحزن مقيمًا. جاءت الفتاة الثالثة وخلعت ثيابها فبان جسدها ناصعًا كاللبن واستلقت على ظهرها ينشع جلدها في الضوء وقالت أشرب. عاف لساني وجسدي. بقيتُ حزينًا على الفتاة الأولى. حين سمعت صوتها بالخارج وأنا مستلقٍ على فراشي، كسرتُ كل الجوارير. أريدهن الآن ليربتن عليَّ نائمًا ودافئًا ويقبلنّني ويأتيّن لي بكوب صاف أبيض ويقلن لي ما تزعلش إحنا بنحبك، ولا يفرق معنا البول وريحته المصنّنة، وبهدلة السرير بدون مشمع، وتكاليف مسحوق الغسيل، وهلكان الغسالة على

الهدوم الخارجية، والداخلية، والملاية، والبطّانية، وأكياس المخدات لما تبقى الشتوية جامدة.

.. قبيل يقظتي غير المتوقعة التي قمت بعدها لأكتب لكِ حلمتُ أني أهرولُ في الصحراء أحملك على ذراعي كطفل صغير. الدنيا ظلام وقنبلة ما على وشك الانفجار. لا سلامة مضمونة على مسافة البصر والأدرينالين يتدفق كمجنون في عروقي يحملك معي. العالم كله لا زال ينتحب على موت الآلهة يا ليلى؛ نحن نعيش عصر النواح التقني. العالم يتعذب ويصرخ طوال الوقت في مرآة نفسه. لم يقتل أحد الآلهة، والبشر لا يستطيعون العيش دون ميتافيزيقيا ولا عشرة قرون من الآن. حِدَاد إلكتروني دون جثّة. جنس عبر الأثير بغير مواقعة. مغامرات افتراضية دون مخاطر. سجائر إلكترونيّة بلا قطران. عراك تفاعلي دون إصابات. تعارف مناطقي دون ملاقاة. حتى الحب أصبح صورة فقط. *ولا أنا دين أم شاذة ولا دين أم متناكة ولا دين أم حاجة ماشي. كسم الهيترز وبموت في الفانز.* هناك أم سمينة بداخلي تجلس أمام شاشة اللابتوب. لستُ مستعدًّا لشيء ولا أعرف أين أطلق الدفقات المفاجئة لمشاعري. الشمس تأتي وتذهب وأنا أمشي على الزرع الصغير إلى ما - يبدو - دومًا - ليس - لمدة - طويلة - بيتي. في الحلم أيضاً، قبيل هرولتي في الصحراء، لم يكن هناك سبب وجيه أتذكره لأترك سيارتي وحدها في الظلام على الطريق السريع. توقعتُ الشر بعد لا أعرف كم من الوقت. حين أفلّتُ من

الحادثة، بدتْ السيارة كما هي. ثم اكتشفت الباب الخلفي المتواري عن الطريق. كأني ضربته بعيني ليعوَج. دخلتُ من نافذته المحطمة. كنت في بطن حوت ميت. لي شيء يخصني في الصندوق الخلفيّ لا أتذكره بالتحديد. أصل إليه من الداخل كثعبان. أسحبه ثم أحمله على كتفي. المقاعد مُدمرة والمحرك خامد. شظايا الزجاج في كل مكان. تركتها على الطريق السريع خَرِبة، هيكلاً لا يوحي بشيء. قابعةً في الظلام كسلحفاة محنطة لا تتحرك. كان ما يخصني داخل الصندوق هو جثتكِ أنتِ.

17

ثلاثة عشر خطوة للشفاء من الحب. الخطوة الحادية عشر ستفجر قلبك!

- اقبل الحقيقة: إنه لا يحسُّ نفس الشعور تجاهك. لو استمررت في أن تؤمن بأن هناك فرصة أنه في النهاية سيحبك، لن تمضي قدمًا أبدًا.
- افهم أسباب لماذا لا يحس بنفس الشعور تجاهك، فهم الأسباب سيساعدك على تعدي الموقف وتخطيه.
- كن إيجابيًّا. لا تدع الموقف يسبب لك شعورًا بالمرارة تجاه إيجاد شخص يحبك. سوف يقودك لأن تصبح شخصًا تعيسًا ومريرًا (أنت لا تريد ذلك).
- اقض وقتًا أكثر مع الأصدقاء، والعائلة، وأحِطْ نفسك بهؤلاء الذين يحبونك ويهتمون لأمرك.
- اشغل نفسك. ارم نفسك في مغبّة العمل والهوايات (لو ليس عندك أيّة هوايات، هناك البعض لتختار منها.. كركيت.. السلة.. جمع الطوابع.. تربية الحيوانات الأليفة، إلخ...).
- ذكّر نفسك بصفاتك الحسنة. فمجرد شخص واحد لا يحبك لا يعني أنك لست شخصًا جيدًا. (ذكِّر نفسك بهذا كلما كان ضروريًّا).

- اخرج للمواعدة. ربما سيكون ذلك صعبًا في البداية لأن قلبك ربما سيكون لا يزال منتميا له، لكن أسوأ ما يمكن أن يحدث هو أنك تقابل شخص يعجبك للخروج. أنت لا تعرف أبدًا، ربما تقابل شخصا يعجبك حقًّا ويبادلك نفس الشعور.
- ذكّر نفسك أن أغلب علاقات الحب تفشل ولا تلقى مآلها.
- لو كان حدث لك هذا من قبل، فكّر كيف تخطيت الأمر في المرة الأولى. (فعلتها من قبل، تقدر أن تفعلها مرة أخرى!).
- لا تُطعم الوحش. بعد شهر أو اثنان، أوقف نفسك عن الدخول في محادثات حول الأمر أو معرفة معلومات عنه. مع الوقت، حزنك سيخبو بمفرده، لو أنك تركته.
- اسأل نفسك: "لم أريد أن أكون مع شخص لا يحبني بالمقابل؟" (أنت تستحق أفضل من ذلك).
- تجنب رؤيته. اللهم إلا بعض المواقف التي لا يمكن تجنبها، مثل لو كنت تعمل معه أو في بعض الفصول معًا.
- دلل نفسك. اشترِ زوجان من الأحذية اللامعة غالية الثمن. واحصل لجسدك على حصة تدليك راقية. اضحك كثيرًا. شاهد أفلامًا مضحكة. اذهب لعروض فكاهية وأخرج مع الأصدقاء المرحين.

في فترة راحة جلسة العلاج الجماعي، تقدم منّي أحد الزملاء وقال بصوت منكسر دون أي مقدمات وفي عينيه نظرة استجداء واضحة، أن هناك مؤامرة تمّت عليه لتجعله هكذا. لا أستطيع الانتباه معه من فرط توتري، فأهز رأسي سريعًا موافقًا على ما يقول حتى ينتهي الحوار، أو المونولوج، في أقرب وقت. لم أقل له ولنفرض مثلًا أن كل ما تقوله صحيح، وأن هناك مؤامرة جبّارة بالفعل علينا، أن شخصًا شريرًا قد حقن بالكيمياء أمخاخنا حين ولدنا، حتى يصيبنا هذا العذاب والجنون، وأن قولَك "أيام لا أعرف حقًا ماذا يحدث لي، أشعر أني مت وأنال عذابي في جهنم" وأن هناك قنبلة نووية انفجرت في دماغك وكيمياء أفكارك ساحت وطرطشت، رغم ضحكي الضاج عليه، يعبِّر بدقة عني، وأنكِ بالفعل مريضة. كل هذا لا يغير في الأمر قيد أنملة، وبصراحة لا أعرف إن كان هذا شيئًا جيدًا أم سيئًا. أعرف فقط أن عليَّ أن أكمل طريقي في سكات. أي طريق؟ لا أعرف تحديدًا، لكني أتكئ على الموهبة الصرصوريّة للطبقة الوسطى داخلي.

بـــاريـس 4

لم تقل لي دورا ماذا حدث بالضبط بعدها إلا في اليوم الثالث. استيقظت في اليوم التالي لطعنة الرجل الملثم بالسكين في جانبي الأيمن فوجدت نفسي مزنرًا بضمادات على الفراش في شقتنا. كانت ترسم لوحة يطغى عليها اللون الأحمر. حين تواجه دورا أمرًا يفوق قوة احتمالها. تتوجه للرسم وتستخدم غالبًا اللون الأحمر. حين سمعتني أتململ في الفراش تركت اللوحة وجاءت واحتضنتني دون أن تقول كلمة. هل في تلك اللحظة كنت أعرف ما كان سيحدث لها، أن بجسدها الضعيف هذا الذي تحتويني به ستَنْفذ النهاية وأنا بعيد عنها آلاف الأميال؟ كنت أعرف أنها شخص مأسوي ومصيره مرسوم على وجهه. إلا أني لم أتصور أني سأكون طرفًا في تلك المأساة. دورا منذ أن كنّا أطفالًا، كانت الطفلة الأكثر انعزالًا ودرامتيكيّة.

في المساء أصررتُ أن نخرج رغم اعتراضاتها. تحت أضواء البار الخافتة، ملتمعة العينين، وشاحها الملوَّن على رأسها كمريضة سرطان أو قرصان جميل المُحيَّا، يعكس الأضواء القادمة من خلف البار، كانت ترتجف وهي تجلس وتحملق في الكأس. هالني أنها ليست تسنيم. أن تسنيم ليست بجانبي في هذه اللحظة، احتجت أن تكون قريبة مني. ليس الأمر أنني كففت عن حب دورا، لكن أحتاج روحًا أكثر شبابًا ونضارة

معي. كنت سأخبر دورا أن هناك متعهد مسرح أمريكي شاهد التدريبات وعرض عليَّ أن أنتقل إلى نيويورك ليكون عرضًا ضخم الإنتاج. لا أتخيل دورا تعيش في مكان آخر غير باريس. إن دورا هي باريس. وباريس مكان للأنشطة الفنيّة المستمرة بلا نهاية. دومًا هناك عروض مسارح وأفلام تجريبيّة وتجاريّة ومعارض تشكيليّة ومشهد موسيقي بديل وشعبي، وعروض أوبرا وموسيقى كلاسيكيّة، عروض أزياء كل لحظة، نحات في كل جحر، رسام عند كل ناصية، ممثل تحت كل جسر، شاعر على كل مقهى، هذه الكثافة المهولة تبتلع كل شيء والنجاح ضربة حظ وسط هذا الزخم الذي تم تحويله إلى تجارة وصناعة لا تهتم سوى بالجديد والمثير فقط. كن جديدًا ومثيرًا ولا يهم ماذا تفعل غير ذلك، سوّق نفسك بالطريقة التي تقنع بها الزبون، الزبون الذي يكون في العادة جهة أو شخصًا أغبي من بعوضة، أو شابًّا يريد الحوز على آخر الإصدارات مثلما يحصل على أحدث نسخة آي-فون، حتى يكون معاصرًا لزمنه بحق ومختلفًا عن الجميع الذين يفعلون مثله بالضبط. صحيح الأمر لا يختلف كثيرًا في أمريكا، بل هو أسوأ، لكن فُرَص النجاح أكبر، خصوصًا مع إنتاج ضخم للعرض. إن إصابتني فرصة سانحة لكي أقول لها ما كنت سأقوله قبل أن يهاجمنا هؤلاء البلطجيّة. - ومتي سنستطيع العودة؟ - ليس قبل عام أو عامين على أقل تقدير.. وربما أبدًا.

انقبضت ملامحها وقالت وهي تنظر إلى كأسها الملآن إلى نصفه بالنبيذ الأبيض: لكنك تعرف أن هذا مستحيل، أنا لا يمكن أن أرحل عن باريس. أمسكت بكتفها وأبديت أمارات الألم والتماسك وبالغت فيهما: - اسمعي دورا، هذه فرصة عمري، لا أقدر أن أضيعها، أنتِ تعرفين أن هذا الأمر يعني كل شيء بالنسبة لي. - لكني،.. لكني سأموت لو غادرت باريس، كما أن أمريكا بلد لا تطاق، من فينا الشيوعي هنا؟! .. فريدو اسمعني أنت.. لو لن تنجح في باريس لن تنجح في أي مكان آخر..هذا ما أريد قوله. نزلتُ عن الكرسي العالي أمام البار وتوجهت ناحية باب الخروج. كما توقعت جرت دورا ورائي وأمسكت ذراعي: هيا فريدريك، دعنا على الأقل نناقش الأمر. توقفت ونظرت في عينيها. وجدتُ نفس أمارات القلق والتعلق اللذين مللت منهما. قبّلتها على خدها وقلت بلطف: بالطبع يا حبيبتي. كل شيء سيكون على ما يرام.

18

صحوت اليوم باكرًا بشكل غير معتاد على صوت اثنين يتعاركان في الشارع.

صحوت لتقع عيناي على رسالتك. أفكر في الحب، العلاقات الفاشلة، القاهرة، الجنون، والإحساس العميق بالخسارة. أفكار سوداوية، هه؟ لكني في الحقيقة أضحك وأشعر بنوع من السخرية العميقة التي لا أعرف مصدرها. أنا الآن في مزاج سيئ حتى أنه يمكنني قتلك فقط بإخبارِك إيّاه. ليس مزاج سيئ تحديدًا، بل مزاج "أشياء كثيرة تنقص". نحن آلهة واعية تخاف أن تُحرَق. ربما بسبب فراغ القلب، استحالة وضع الثقة في دين أو معتقد ما. والآن الواقع الذي علينا مواجهته. أشعر برعب أكثر حقيقة من كلتا يديك. كما يقول دالي الفرق بيني وبين المجنون أني لا أتصرف بصفتي مجنونًا. أشعر بجنون تلك الهوة التي انفتحت في رأسي على ظلمة لا نهائية، ظلمة تضغط بلا نهائيتها في كآبة مستحيلة.

صادفتُ هذا الصباح، بالقرب من البيت، قطيطة صغيرة تموت على الرصيف، تنظر لأسفل وجسدها نصف واقف كما لو أنها كانت تزحف وتوقفت عن المحاولة. لم تكن أكبر من نصف كفّي. تموت. قذرة. صغيرة. أصبتُ بخوف كبير لكنني توقفتْ. لا أعرف ماذا أفعل. ضغطت بأصبعي عليها. مشيت/جريت إلى البيت مستكملًا خوفي البائس. الآن، وأنا

أهدأ، استدعيها في ذهني وأشعر برغبة ضاغطة في البكاء، لكنك تعرفين أني لا أستطيع أن أبكي .. خمس سيجارات غايتهن أنتِ. أن أصل إلى جوهرك عن طريق تفكيري المحض: قلت للمحللة عن الحلم الذي حلمته عنك "أنا بجانب بيتها، وهو يشبه فيلا كبيرة بحديقة في المعادي. ووجدت أن المكان قد تحول إلى مطعم راق مغلق. سألتُ واحدة واقفة فردّت أن المكان مقفل وتحت التجديد. لكن يبدو أني شككت فيما تقوله فذهبت إلى الباب الخشبي الكبير ونظرت عبر المربعات الزجاجية فيه، فوجدت أناسًا بالداخل يجلسون على طاولات ويأكلون، المطعم يبدو مزدحمًا جدًّا ولا يوجد مكان لشخص ولذلك أغلقوه. قلت لنفسي هي كذبت، لكن أيضًا المكان قد تحوَّل بالفعل لمكان آخر. وأنا أهم بالرحيل دخلت إلى سوبر ماركت كبير مدخله بجانب البيت، وأنا سائر وجدتها مقبلة ناحيتي من الداخل، فأختبأت خلف حائط أو لوحة إعلان ما كبيرة، رميت نظرة مرة أخرى فوجدتها هي. فعلت ذلك كي أحضّر نفسي ولا أتفاجأ. دخلتُ عليها وتصافحنا وكان معها صديقة لها، رأيتها من قبل في مكان ما لكني لا أتذكر أين. ونحن نتبادل التحيّات وجدت نفسي من شدة الحماسة أحرّك جسمي كثيرًا بشكل مبالغ فيه. فأحرجت واضطررت أن أشرح أني سعيد لرؤيتها. مع الكلام جلسنا على كراسي بلاستيكية داخل السوبر ماركت بجانب ثلاجة الجبن كبيرة الحجم. كنت سعيدًا جدًا أنها بجانبي وأننا نتحدث. لم أشعر بشيء ناحيتها.

لا أشعر سوى بأني سعيد، سعيد جدًّا، حتى أصدر أحد ما في البيت صوت كلب بحر يغرق فصحوت واغتظت أني قد تركت الحلم وأنا أتحدث إليها". لم تكوني قد زرتِني منذ سنة تقريبًا. يقولون إنه شيء مرعب أن معالج شخص ما يعرف كل شيء عنك. أتخيل معالجتي - وهي شابة في سنك وكانت تلعب ألعابًا قتالية في صغرها كما قالت لي مرّة - وهي تقاتلك بالكونغ-فو. وأنكما تتقاتلان وأنا لا أعرف من أساند فيكما. ولا أعرف من أريد أن تفوز. وكيف يكون حتى الفوز.

كانت السيجارة الخامسة هي التي جعلتني أسعل وأكف عن التفكير في الحلم. كنت قد فكرت أن الحلم من نوع شديد الواقعية، الذي يعتقد الحالم أنه حقيقة تحدث له. كان واضحًا بشكل غريب لا يوجد فيه تفاصيل هاربة أو مبهمة، مثل شاشة الواقع. بنفس ردود أفعالك المتوقعة منك. الفرق أننا جلسنا ولم نرحل. في الحلم لم أكن قلقًا كوني في المعادي سوى في لحظة وسط حديثنا ونحن جالسان. تجاهلتُ الإحساس وركزت في الفرحة - أنا الآن مستغرب من الفرحة وسببها - كنتِ شابة ثلاثينيّة، وكنتُ تتعاملين بشكل عادي، تعامل شخص لم تريه منذ سنين وتريدين أن تجعلي التعامل محايدًا، لا ودودًا ولا باردًا، بل نوع من الرسمية والمسافة اللطيفة. كنتِ ثلاثينيّة في الإحساس أكثر من الشكل - وكنتِ أكثر سمارًا مما تعودتُ عليه - وطول الوقت أفكر أن أقول لكِ شيئًا لكني لم أجد مناسبة في الحوار. شيء مزعج لو فكرتِ فيما يعني. كنت

أريد أن أقول: لم أحب أحدًا مثلما أحببتك. فكرت أن أقولها: لم أكن سعيدًا مع أحد مثلما كنتُ معكِ. لكن الكلام كان رسميًّا ومن نوع "احك لي عما حدث في حياتك في الفترة الماضية". في الأغلب لم أكن لأقول لكِ ذلك، ممكن أن أكون قد أردت قول شيئًا مؤثرًا في هذا اللقاء الغريب. لا أعرف. لكن تلك الحقيقة لم تكن تزعجني في الحلم. كنت سعيدًا ومرتبكًا في آن، لكن مع الوقت بدأت أتأقلم مع الحدث وأسعد أكثر. لماذا تلك الحقيقة مزعجة؟ تخيلي أن أكثر شخص أحببتيه لا يوجد الآن، وأن تلك الحقيقة لا تفيد بشيء. في الواقع هذا الأمر ليس مهمًّا بالنسبة لي. أنك أكثر شخص أحببته، بل المهم في الحلم الفرحة، كنت أود أن أحكيه بنفسي لكِ. وعند انتهاء السيجارة الخامسة توقفتُ.

في حلمٍ آخر لم أحكه لأحد، ولا حتى لمحللتي، كنتِ تنتظرين أن أعطيكِ قُبلة، كان الجميع يتبادلون القُبُلات احتفالًا بكريسماس ما أو سنة جديدة، لكني كنتُ أهرول جاذبًا يديكِ ناحية باب المصعد الكبير، كنتُ مرعوبًا من فكرة أننا في الطابق التاسع عَشر. مطّة شفتيكِ وتعبير وجهك أشارا إلى أنكِ تنتظرين هذه القُبلة في لهفة. حاولت أن أرجّح كفّة الرغبة على كفّة الرعب، أشدكِ ناحيتي في محاولة لتقبيلكِ ثم ألتفت وأمد خطواتي عبر الردهة فاعتقدتِ أني مرتبك من

الهلع فربتِّ على كفيّ مهمهمة ببضع كلمات تطمئنينني بها. ركبنا المصعد كبير الحجم كغرفة صغيرة، بدأت أستجمع تركيزي، ضممتكِ أمام عامل المصعد وقبلتكِ قبلة عميقة، لكنكِ كنتِ قد تركتني وبدأتِ تقبلين العامل نفسه، ويده تعمل تحت ثيابكِ، صحتُ معترضًا "مش من تحت الهدوم.. مش من تحت الهدوم كده".. مستندًا إلى أطراف قدمي مشرئبًا أشاهد ما يجري عن قرب كأني اتابع حشرة خفية بينكما. كنتما مستغرقين تمامًا في فعلكما. عند الطابق الثاني عشر كنت أنهنه، عند الطابق الخامس كنت أنتهي من بكائي، عند الأول كنتُ باركًا على الأرض، حين فُتح الباب على أرضية الردهة كان لي سبب، وأنا أقاوم الدوار في رأسي، أن أتناسي ألمي العميق. شعرتُ أني أقرب لمجنون ضخم الجثة في مصحة يشرب لبنًا ساخنًا بعد نوبة هياج على لعبة كُسرت منه. مددت عنقي إلى الأمام في تلقائية صانعًا علامات عته بملامحي، نافخًا كرشي إلى الأمام. صَعُبَتْ عليَّ نفسي فقلتُ إمعانًا في الشفقة بصوت خرج مغَلّقًا: وصلنا بالسلامة.

درس اليوم؟ استدعاء لقطة ذكرى واحدة من حلمٍ بعلبة سجائر كاملة.

19

داليا صديقتك المقربة.

كنت قد تركتك وأخبرتك أنني لا أريد أن أورطك معي. كان تفكيري أنه لا يوجد أفق لما يحدث؛ انتابني إحساس بالتعقل وقناعة أني أحميكِ وأحميني من أحاسيس سنندم حين نشعر بها، وأن هذا شكل أعمق للحب، لا الخوف.

في الهاتف: "التفتْ وراءك". الخواء كان صادمًا. لم ألمحك بين الواقفين القليلين على أسفلت الممر. لكنك بزغت أمام وجهي؛ شعرت فجأة أني لا أريد أن أكون رجلًا. أريد أن يُهيمن عليَّ. يُسيطر عليَّ. أُنتهك أيضًا. أن تعامليني كما يعامل ذكر أنثاه؛ فظَّة ومهتاجة، تحميني وأشعر بالأمان. كنتُ أهتاج بشدّة حين تمرحين معي بتغليظ صوتك وعباراتك وتعبثين في جسدي كأنك تتحرشين بي. صحيح. كي تحبي وتُحَبي تحتاجين إلى شجاعة، أن تستسلمي لشخص حتى وأنتِ تعرفين من البداية أن كل الحروب بجانبه خاسرة. فشلتْ كل دفاعاتي وصعب عليَّ أن نتعامل كغرباء. أردت أن أقول أحبك، وأنكِ صيفٌ صغيرٌ محجّب في بداية الشتاء. أجمل تحية لصراصير الطبقة الوسطى التي تعيش في الصيف والشتاء. وأنا صرصار لا يقل بؤسًا عن صرصار كافكا. لكني أردتُ أن أكرّس نفسي

لعنقك. أضع مجساتي العديدة على زواياه المختلفة. أتأمل. أقبل. أداعب. أشم. أعض. ألعق.

قال: أنا كشفت حيل أمريكان ومصريين وصينيين وهنود ويابانيين وباكستانيين. قالها لي أمام جميع الطلبة. اكتشف الدكتور أنني قد نقلت المشروع المطلوب، كانت مادة سخيفة في العام الثالث أعيدها للمرة الثالثة. شعرت بالإحراج لأنه يهينني أمام طلبة في عمر أولادي. أخذ اسمي وقال لي أن أعيد المشروع وأسلمه في الغد ولن آخذ أكثر من ثلث الدرجة. تركت قاعة المحاضرة وتمشيت بلا وجهة في أرجاء الجامعة. كان الوقت صباحًا والجو دافئ وجميل في بداية الشتاء. وجدت نفسي أمام مكتبة الجامعة فدلفت من الباب الذي فتح أتوماتيكيًّا. طلبة تذاكر وتعمل في كِدٍّ. تركت الحقيبة في الخزانات المخصصة على اليمين ودلفت إلى اليسار حيث أرفف الكتب المتراصة مثل أرشيف حكومي قديم. جلتُ بلا هدف حتى وجدت كتبًا باللغة العربية التي كانت قد جاءت في وقت سابق ما لا أعرفه، فأنا لا أدخل المكتبة إلا نادرًا بغرض ملاقاة أحدًا هناك. الشمسُ ترسل ضوءًا لطيفًا يعبر النوافذ الزجاجيّة العالية فيلامس الرسمة الصغيرة عبر الزمن في الكتاب بين يدي عن تاريخ الخط العربي. كتاب بسيط والكلمات الطافية بداخله جميلة طبع عليها الضوء فتغدو أكثر جمالًا وعمقًا. ابتسمت وأنا أتخيل جمع من

الشباب في بغداد حول شيخ عارف. جلسوا في الصحن الكبير وقالوا -والدنيا بدأت تُندي- حدثنا عن الحب، فيعدل الشيخ عمامته، ويتحدث. في وقت الظهيرة، مثل الوقت الذي أُمسك فيه الكتاب هذا داخل المكتبة، وصل عالم آخر من أقاصي الأرض. تجادل العالمان مدة طويلة. فعدل الأول عمامته، واتكأ على ذراعه اليمني وقال وهو ينظر إلى غريمه، وقال قوله الأخير. صمتت الباحة كلها، كأن على رؤوسهم الطير. بالخارج، خالجني دفء، وأنا ثانٍ ذراعي وعلى أذني هاتفي، وعلى كتفي حقيبتي القماش متدليّة أمام باب المكتبة أرد عليك بصوتك الطفولي الناعم تقولين "التفتْ وراءك"، كدتُ أقول إنه أفضل من الحب.

20

داليا صديقتك المقربة. محجبة أيضًا. طويلة وجميلة الهيئة ببياض بشرتها. يبدو عليها صرامة العُصابيين. أعرفهم من أصابعهم المتوترة النحيلة مقصوصة الأظافر بعناية. صدرها كبير لكنها تخفيه بصرامة السوتيان المشدود على اللحم. هي تعرف أن سوتيانها المشدود تحت البادي طويل الأكمام ولون عينيها الفاتحتان سيضمنان لها عريسًا ذا مستقبل مشرق يشترط البراءة والجمال في عروسه. كانت تضحك معك وتلتصق بك فشعرت بالغيرة منها. وددتُ فعلًا أن أكون أنثي. أو نكون حتى إخْوَة. *ليتك كالأخ لي الراضع من ثدي أمي فأجدك في الخارج وأقبلك ولا يخزونني*. هذا ما يقوله الكتاب المقدس الذي لا تؤمنين به ولا داليا. أو على الأقل لا تؤمني بنسخته الحالية المتداولة. أستأذنت من داليا أن أكلمك بابتسامة مبالغ فيها حتى أخفي مشاعري السيئة نحوها. ابتسمتْ في ودٍّ نادر وقالت بالتأكيد. فترة من الصمت مرّت أنظر إلى عينيك في قلة حيلة، ثم لم أتوقع أن يخرج من فمي هذا. الجملة سخيفة للغاية. لكني لم أكن أعرف ماذا أقول أصلًا. وعندما خرجت الجملة من فمي شعرت براحة مفاجئة. قلتُ إني أحبك. اتسعت عيناكِ الصغيرتين. ثم نظرت في أسى ازداد مع كل كلمة: - انتهي الموضوع.. خلاص.- ليه؟ - كل الناس قالوا اللي بنعمله دا غلط وما يصحش. - كل الناس زي مين؟ - داليا بتقولي إنك بتتسلى

بيا عشان تبقى عرفت بنت محجبة. - أنا! - أيوه، وإنك في الأغلب بتستعبط. - طيب ما هي داليا مصاحبة. - إنت هتهرز؟ داليا مصاحبة واحد مسلم زيها وهايتخطبوا الأسبوع دا.. بص أنا مش عاوزة حتى نبقى أصحاب.

اقتحمت داليا وقفتنا وكادت أن تقف بجسدها الطويل بيننا. قالت بطريقة تظهر كأنها عادية دون أن تنظر إليَّ. - إنتوا بتتكلموا في إيه؟ أعرف طبيعة هذه العلاقات المثليّة بين الفتيات الملتزمات المحرومات من العلاقة الطبيعية مع الجنس الآخر في مراحل تنشئتهن المختلفة. وأعرف أن لها شخصية ذكوريّة مسيطرة. كوك بلوك نموذجي. تعرفتِ إليها في السنة الأولى، كما حكيتِ لي مرة، وأصبحت داليا منذ هذا الحين صديقتك المقربة.

بـــاريـس 5

دخلت دورا في هلاوس وضلالات ونوبات متباينة الحدّة لأيام بسبب سهرة الأبسنت الخضراء. لا يوجد سوي الخراب من وراء رأس هذا الثعبان. كان الأمر سيئًا بالفعل لأنها لم تأخذ الدواء منذ فترة لا أعلمها. كانت ترى أمها وأباها وأشخاص آخرين ميتين وتهتاج بلا سبب لتحطم كل ما يقع تحت يديها وتمزق الملاءات والأغطية. المشكلة أن الوقت كان عاملًا حاسمًا بالنسبة لي. فنحن في الفرقة في فترة حرجة ونحتاج إلى كل دقيقة. كل دقيقة تمر تساوي مالًا يهدر. ولا أستطيع أن أتركها في تلك الحال فمن الممكن أن تؤذي نفسها بأي شكل. هاتفت داليا كي تأتي، حاولت التهرب فقلت إن الأمر طارئ ودورا تعبة للغاية وأنا لا بد أن أذهب إلى الفرقة. المشكلة الأخرى أن دورا لديها مقابلة عمل مهمة على العشاء هذا المساء. استسلمت في النهاية وقالت إنها ستأتي بالطبع بالطبع. وصلت بعد ساعة وأبلغتها أنها لن تستطيع بأي حال من الأحوال الذهاب، فهي نائمة تحت تأثير منوم قويّ ولن تصحو قبل غد.

ذهبت إلى التدريب. كانت تسير الأمور على ما يرام والمتعهد الأمريكي يبدو راضيًا أكثر من أي وقت مضي. تسنيم مشعة في التدريب والممثلون يقبضون أخيرًا على الإحساس الذي أريده منهم. التدريب يمشي بسلاسة وموسيقى فاريسي تفعل السحر في هواء القاعة. على الساعة السادسة اتصلت داليا لتقول إن

دورا فاقت وأنها أفضل حالًا وتريد الذهاب إلى المقابلة. أبديت استغرابي لكني ألغيت بقيّة البروفات ورجعت إلى البيت وذهبنا جميعًا إلى لو جراس على طاولتنا المعتادة في انتظار الموعد.

جاء المتعهد الفني الذي من المفترض أن يقيم معرضًا مهمًّا لدورا، إذا سارت الأمور على ما يرام، في الميعاد بالضبط. جان بابتيست فرنسوا. رجل في العقد السادس من عمره وله سطوة كبرى في المشهد التشكيلي الباريسي، مجرد تعاون دورا معه سينقلها إلى مكان آخر. شخص حازم له حضور، بشهوانيّة غريبة في عينيه مع حضور رصانة توازنها. كان يلبس كنزة نبيذية غامقة وكوفيّه برتقاليّة وبنطالًا أسودًا جعله أنيقًا مع شعره الأبيض. بدا متناغمًا مع دورا التي تلبس بلوزة سوداء وبنطالًا أسود مما وضع مزاجًا متناغمًا للقاء. كانت دورا هشّة للغاية وغير حاضرة الذهن شاحبة شحوب الموت. تسند بيدها على فخذي طوال الوقت وتتحدث بصوت خفيض أقرب إلى الهمس. لم يبد أن الرجل يلاحظ أو لم يرع اهتمامًا. كانت دورا تتحدث عن المعارض التي أقامتها وتريه بعض الأعمال. علّق بأنها متميزة في الألوان والتكوينات لكن تعاملها مع الخامات والتكنيك يحتاجان إلى بعض التطوير. تدخلت وقلت إنها أعمال من سنوات سابقة وأن دورا في الآونة الأخيرة تطورت عن هذا كثيرًا. لم يعلّق على كلامي وتوجه بحديثه إليها مثلما يفعل منذ بداية مجيئه. كان يجلس على أعصابي، فأنا مهتم بالفعل أن تحصل دورا على هذا الاتفاق بأي شكل لأنه ربما

يكون النفق الذهبي للخروج من هذا المأزق الكبير كله. الجميل أنه لم يبد أي اهتمام بوجود داليا التي جلست في ركن تدخن سيجارتها الرفيعة بالمبسم الطويل الغامق وتنظر إلى مختلف الاتجاهات في المطعم كأنها تطمئن إلى أن الجميع بخير حال وسعيد بالطعام المقدم لهم. أكاد أقسم أنها ستموت في داخلها لأنها لم تلفِت انتباهه. في نهاية العشاء، الذي لم يأكل فيه سواي أنا وفرنسوا، وعلي الرغم من نبرة صوته التي لم تبد متحمسة، قال إنه يسعد بالتعاون معها في إقامة معرض خاص. بدون سبب بادٍ، قفزت دورا كأنها لُدغتْ، رغم وهنها، وقالت أن أصحاب المعارض لا يهمهم سوى المال، وأنها تحتقر هذا المجال الذي يجعل الفنانين كالنقاشين ينتظرون دورهم ليأخذوا عمولتهم. قام الرجل في هدوء، سلمتُ عليه بحرارة محاولًا إنقاذ أي شيء، لكنه رحل دون أن ينبس بشفه. لم أعلّق. قلت لداليا أنني لدي مشوارًا مهمًّا وأنهما من ممكن أن يرجعا إلى الشقة وسأنضم إليهما لاحقًا، حاولتْ الاعتراض لكني انصرفت سريعًا دون أن أعطيها فرصة. سمعتها تشتمني وتقول لدورا إنها لا تستحق أن تبقى مع هذا الحيوان. دون أن ألتفت أردفتُ بصوت واضح وصل إلى مسامعها: سوف تدفعين ثمن هذا لاحقًا.

21

لو صبَّ أحدهم، لسوء طويته، على رأسي دلوًا مليئًا بالثلج مثل تحدي حملة توعية "مرض التصلُّب الضموري"، ما كان أقشعرَّ جسمي بكل هذا الزمهرير.

بعد مرور الصيف ومدخل الخريف، انتهى أسبوع المحاضرات الأول الذي لا أحضره كل عام، لأنه دون فصولٍ ملحقة بها كشف حضور. في هذا الأسبوع يذل الدكاترة الطلبة بتكرار أن مواد العام صعبة ومرح الصيف قد انتهى وهناك مستقبل يتطلب الالتزام وهذه هندسة وليست فنون تطبيقية أو إدارة أعمال.. إلخ إلخ من الجمل الكئيبة التي طالما أحبطتني.

مشيتُ المسافة الطويلة الصاعدة التي تفصل بين البوابة الرئيسيّة ومباني الهندسة بـ"الأعلى"، حيث مررتُ على حديقة ومباني الBs، ومنطقة الU، وملاعب الكرة والسلّة، ومطاعم وكافيهات خارجيّة، أنهج وأنا أقطع تلك المسافة وأشعر بالخوف ككل مرة، حتى يتصاعد خوفي إلى ذروته وقت وصولي إلى المبنى المقصود، فأصعد بسرعة شديدة في ارتياع حتى لا أرجع إلى السيارة وأنطلق إلى البيت مفزوعًا. طوال الطريق، كل يوم، أثناء ذهابي للجامعة، أقاوم حتى لا ألوّح السيارة في أي عربة بجانبي فأموت وأستريح من هذا العذاب المريع. برودة لاذعة في

سلوك أعصابي. حين وصلت إلى الدور الثالث كنتُ قد هدأتُ قليلًا. دلفتُ إلى الفصل شِبه الخالي وجلستُ على أول كرسي صادفته قريبًا من الباب كعادتي، حتى أستطيع الهرب في أي وقت من أي مصيبة أو كارثة تحدث، وكي لا أكون قريبًا من النوافذ. أضع حقيبتي أمامي وأهزُّ رجلي وأنتظر.

لكني لم أقدِّر أو أستعدّ أو أتأهَّب أو حتى أتوقع ما حدث بعدها...

كما وودتُ دومًا، بكامل مَلبسك وشعرك، دخلتِ حجرة الفصل.

دلوٌ كاملٌ من الثلج سقط على نُخاعي الشَوكي مباشرة..

أوّل ما تبادر في ذهني: لم أنتِ هنا وأنتِ قد تخرجتِ؟ هل تعيدين تلك المادة كي تحصلي على درجات أعلى فتحافظين على تقدير كليٍّ معين؟ لحظات وعرفت، سرتِ حتى الطاولة أمام اللوح الأبيض لتضعي عليها كراسًا واحدًا كبيرًا وآي-بود أبيض وقلم فلوماستر للكتابة. لم تكوني قد رأيتني بعد. حينها فقط أدركتُ المهزلة التي سوف أواجهها طيلة ترم كامل؛ ليلي هي مدرستي هذا العام لتلك المادة! لسبب ما انصب تركيزي على القلم الفلوماستر السميك الذي تمسكينه في يدك السمراء الكبيرة. تمنيت أن يكون قضيبي في سمكه وصلابته، وأن تمسكيه مثله وتدخليه بشغف من خلفك وتبدئين الشرح ولا يظهر عليكِ شيء من المتعة أو الألم. تطلعتِ إلى الغرفة

تمسحين بعينيكِ أول طلاب لكِ في حياتكِ. رأيتني فتوقفت حدقاتك للحظة ثم أكملت مسحك للغرفة في سرعة. حاولتِ أن تحافظي على ابتسامتك وبدأتِ في تقديم نفسك. شرح الدرس الأول؛ مقدمة للمنهج ومراجعة أساسيات مطلوبة له.

كما لو أنك تحولتِ. ثيابك تغيرت كثيرًا لكنه نفس جسدك. أكثر أنثوية وإشعاعًا. أهش وأقوى. ذهب تخشبك الذكوري وأصبحت أبسط وألين. عملتْ هرموناتك في جسدك أخيرًا. متأخرًا جدًّا. شعرت بسخونة وجهي. كنت محرجًا كشرموطة قُبِض عليها أمام جيرانها. أحسست أنهم كلهم ينظرون إليَّ. شعرت بكرامتي ونفسيتي قد سقطتا صريعتين على بلاط الغرفة. لم أقدر أن أرفع رأسي. حاولت أن أشعرك بالحرج إضافة لشعورك الطبيعي بالارتباك. استمررتُ في أسئلة الطالب الغبي بإصرار عنيد. حتى فقدت أعصابك وقلتِ اسمي بطريقة غير رسمية: هاقولك بعدين. أعدتُ اسمي بطريقة تلقائية مستنكرة: مش من حقي أسأل يعني! أوك! وقفتِ مسمّرة بضع لحظات فعرفتُ أنك ستبكين. لكنك أكملت بصوت عادي الدرس مرتكبة أخطاءً كثيرة.

كتبتُ اسمي الثلاثي في ورقة الحضور ورقم عضويتي في الجامعة. ناديتني. اندهشت، لكني اقتربت بمظهر الواثق المخضرم رغم أني أرتجف داخلي بشدة. بدأتِ في شرح المعادلة

التي سألتك عنها بصوت خفيض وهادئ وأنتِ لا تنظرين إلى. عند نقطة ما، تركتك تتحدثين وأخذت أهز رأسي بابتسامة بلاستيكية واتفرج عليك كفأر تجارب يجري فوق العجلة الدوارة بحماس. قلت بصوت رسمي - آه، شكرًا يا دُكتُور.. وقفتِ صامتة ثم أخذتِ شنطتك وأوراقك وخرجت من الفصل، حتى بدون أن تأخذي ورقة الحضور التي عليها اسمي الثلاثي ورقم عضويتي. كأنكِ انتقلتِ إلى وجهك الآخر بغتة، بقماش سخيف حوله، حيث كان عليَّ، أنا الذي ظننت أني سأكون الطرف الأكثر عقلًا وتحكمًا، أن أخوض هذا الذي لا يطاق، غير المتخيل واللا-إنساني، الفضيحة الهزلية، الفظاظة الإباحيّة، الوساخة البشريّة؛ أن نتصرف كغرباء. كنت في الغالب سأرفض وأبقى مكاني، لكن وحشة ذراعك المفقودة استقامت لتصل إلى صدري ونهشت غضبي إلى حزنٍ. توجهت للسلالم ونزلت. فأنا أيضًا، قلت لنفسي، ورائي أشياء لأفعلها، وفي كل درجة أنزل بخفة أكثر يدفعها غضب مكتوم.

وأنا خارج إلى البوابة الرئيسية استقبلني من بعيد بابتسامة لزجة مثل ابتسامة مندوبي المبيعات. هو في نفس دفعتي لذا هنالك شراكة غير مقصودة بيننا؛ زميل بالمعنى الدقيق للكلمة. سألني عن أخباري وماذا أنهيت من مواد. - عاوز اتخرج بقى زهقت من القرف دا - بفكّر أحوّل مانيجمنت.

دومًا نفس جمل الحوار التي نتبادلها بنفس الحرارة والتصميم، حتى أننا وعينا أننا نمثل أدورًا نحفظ نصها. كانت بداية سنة جديدة مكررة وتعذيب جديد مكرر.

****

في الحلم جئتني لتعتذري لي، ووسعت في عينيك، لأنك تعرفين كم أحب العيون الواسعة. كان يشرق النور من حولك في بلاهة حلميّة، ورغم ذلك فقد ابتعت المشهد، جئتِ متمسكنة باسمة مشعّة حنونة ومحجبة مثلما مضى. وكان عليّ أن أفعل الباقي: أن أقبّلك بين عينيك وأنا مغمض العينين، ثم أنزل على أنفك المنمق متحسسا طريقي بلساني وشفاهي لكي أصل إلى فمك، وفي طريقي أبعث ببعض الأنفاس إلى فتحتيْ أنفك حتى لا تختنقين، ثم أنزل بحرفية لألتقط شفتيك الجميلتين وأعضهما بخفة كما كنت أحب دوما. كل هذا وأنا احتضنك بقوةٍ مصالحةً وعلامةً على غفراني لك بعد أن جئتني بنفسك.

لماذا أتكلم كثيرًا عن أحلامي؟ كان القديس أغوسطينوس يؤمن بقيمة الحلم، ويرى أنه معونة الله الرحيمة، التي تُعلّمنا به أشياء كثيرة، أي وسيلة للإلهام والاتصال. لكن، في الحقيقة، بيني وبينك، آخر الليل لا أحد لأحدٍ يا حُبي.

حين استيقظت وجدتُ أنني قد استيقظت مبكرًا جدًّا. فكرتُ أن أبعث لك رسالة: "لم أكن لأسامحك سوى أنكِ جئتني بنفسك".

****

لم أذهب إلى الجامعة. ليس ورائي محاضرات. هذه ميزة أن تكوني متأخرة دراسيًّا في جامعة خاصة. الضغط الدراسي يخفُّ كثيرًا ويبقي فقط القرف وابتزاز أهلك متزايدًا بجنون. نجحت في مرور النفق السفلي لشارع صلاح سالم كاتمًا أنفاسي حتى طلوعي من السلالم في الجهة المقابلة. ولم أتحرك إلا عندما ردّدتُ اسمك عشرة مرات في سري. حتى مع دفعي من الرجل العجوز ورائي الذي صاح في عصبيّة، لم أرد عليه حتى لا يغضب مني الرب. لا أسمح لنفسي بلحظة سلام. مع مرور الوقت كنتُ قد اعتدتُ على هذا الألم ونجحت في التعايش معه حتى أصبح جزءًا مني. لا يذهب لكنه يتوارى أحيانًا. المشي بسرعة فائقة أو التدخين يساعدان، قصة يحكيها شخص ما، قطعة موسيقيّة لا أعرفها. رسمة غير مقصودة على أطراف صفحة، وجوه جديدة أصادفها في الشارع، صلاة السبحة في الكنيسة، كل هذه الأشياء كانت تريحني، لفترة قصيرة، من الإحساس بألم الغضب والوحدة الذان يشعَّان من صدري إلى معدتي وكل أطرافي ومسامي.

قصة أخرى: عنّ لي، ذات يوم، أن أدخل مسجدًا، وكان لا يوجد به غير إمام شائب وفتاة تقية باهرة الجمال تقوم بصلواتها، وكانت بادية الجيد، وكان يوجد بين نهديها طاقة رائعة من الخزامي والورد وشقائق النعمان والحَوْذان والزعفران والأُذَينيّ، فتركت طاقتها تسقط، وأجمعها، وأعيدها إليها بتهافت مع عظيم احترام، وأبلغ من تلبثي طويلًا في إعادتها ما يغضب الإمام معه، ويرى أنّني نصراني فيطلب العون، ويؤتى بي إلى القاضي فيأمر بضربي مئة ضربة بالعصا على باطن رجلي، ويحكم عليَّ بالأشغال الشاقة في الليمان وفي حبك للأبد.

22

كتب ماركس في كتابه الثامن عشر من بروميير: "يقول هيجل في مكان ما إن جميع الأحداث والشخصيات العظيمة في تاريخ العالم تظهر، إذا جاز القول، مرتين. وقد نسي أن يضيف: المرة الأولى كمأساة والمرة الثانية كمسخرة". أشعر بالفعل أني نسخة من نفسي، أني أعيش للمرّة الثانية، لكنها مرّة ثانية مشوهة ومنحرفة عن المسار؛ مسخرة.

كنتُ نحيف الجسد قبل أن أعرفك، في بداية حياتي الجامعيّة. لا تعرفين هذا، ربما أخبرتك بشكل عارض. في هذا الحفل الصباحي في الجامعة بمناسبة لا أتذكرها، كنتُ واقفًا ببذلتي الكريميّة، بين خلط كبير من مصريين وألمان لا أعرف أحدًا منهم، في مهب ريح الصيف وسط الحديقة الخضراء ولا شيء يثيرني كأني ميت. منتظركِ لتظهري. لكني أدركت في التوِّ أنني لا أعرفك بعد. بجانب الطاولة المستطيلة المغطاة بمفرش أبيض أنظر إلى طبقي الورقي وألعب بالشوكة البلاستيكية في الطعام وأضعه في فمي. كنتُ وحيدًا، في أحجية أخرى، أبحث عنك، داخل الفَج العميق. رباعي وتري جلبته إدارة الجامعة في هذه المناسبة يلعب في الهواء الطلق، تخف الموسيقى وتبعد لتنثر كالريش على خضار الحديقة. أذكر أنني حملقتُ في الأوتار التي تهتز تحت الأنامل والأقواس. أمواجٌ من بحر لامع أسود تتحرك بإيقاع شبه ثابت. لم أكن قادرًا على رؤيتك جيدًا.

لكنكِ كنتِ صامتة. تركتِ الموسيقى الناعمة السوداء الهشّة تندمج في المشهد الأخضر. واختفيتِ.

يحدث الآن ومن غيرك.

كل شيء. حياتي التي تمر دون أن تكوني فيها. لا تشاهدين مكاسبي فتفخرين بي وتحبينني أكثر ولا هزائمي لتربتي عليَّ وتشدين من أزري. قلق مزمن في مدينة كئيبة هو الجحيم بعينه يا ليلى. وكوني معلق بالطبقة الوسطي فيها فهو أمر أشبه بمنزلة بين المنزلتين. أشرب سجائر كأني فقدت ابني. أفكر في عبارة "لأن الناس يحبون الأشياء التي تحبهم" للشاعر اليوناني إيليتيس بإحدى قصائده. عبارة مُلهمة لكنها غير دقيقة. الناس يحبون الأشياء التي يعتقدون أنها ستخلصهم وتجعلهم سعداء، حتى لو كانت تكرههم. في لعبة الخصاء المُتبادلة يبحث كل شخص عن مُخلّصه.

كم تستغرقين من الوقت لتنزعي السكين من ظهرك؟ الأبد؟ لحظة؟ العالم جميل، عالمي لا.. هذا كل مساحة ألمي. دعيني أحكي لك عن مرض اسمه "البضنة التي تسبّب رثاء الذات مما يؤدي إلى محاولة تعويض بقضاء وقت فيه بعض المتعة والكثير من تحطيم الذات تنكيلًا بها وانتقامًا منها لأنها مبضونة بضينة". هذا الاختلال النفسي والمزاجي الذي يجعل

الواحد حين يريد عمل أشياء كثيرة، يتركها جميعًا ويفعل شيئًا آخر.. اللاشيء!

أقول لكِ، الأمر الوحيد الذي نجحت فيه ببراعة هو أني فشلت في كل شيء. تصبحين حقيقية فقط حين أحلم بك. لكني رأيتُ في الحلم أني قابت تلك المرأة، أنني أستطيع أن أحب مرة أخرى. ما يضايقنى أنه أصبح أمرًا مستحيلًا أن نصنع ذكريات مرة ثانية معًا. أحيانًا أشعر أن كل هذا ادعاء، مثل تخيل افتراضي. الفشل. الألم. الخوف. تخيل افتراضي أغمس نفسي فيه لأخرج من رأسي ربما. شيء عميقٌ فيّ يقول إن كل هذا كذبة. تطلّعي إلى الحيرة العظيمة: الحب مُطلق - الحب يموت وينتهي. عندما أوحشتيني كذبت نفسي في الكلام الذي قلته وأنا أكرهك ونسيت ما قلته أصلًا. ليس فقط أني أكرهك. بل أكره أني أكرهك. وأكره ذلك حين أكره أن أكرهك.. توحشينني.

وأصدقكِ القول، سأكون سعيدًا لو عرفت، مصادفة، أنك تعيسة. كل جداولي الزمنية انهارت بسبب فترات الاكتئاب. كل الأشياء التي عليَّ أو أريد فعلها. مزاجي يخرُب بالأشياء الجميلة. هناك أنواع عديدة من الأسئلة يا ليلى، الكثير من الأسئلة؛ السؤال الذي ليس له إجابة، السؤال الذي تخافين أن تجاوبيه، السؤال الذي ينبغي أن تجاوبيه، السؤال الذي يُسائل نفسه، السؤال الذي يجاوب نفسه، السؤال الذي هو

إجابة لنفسه، هناك الكثير من الأسئلة، لكن السؤال الوحيد الذي لم يُطرح من قبل هو سؤال حبكِ. في الماضي كنت أرى أنها جريمة ضد أي إنسان أن يحزن في الربيع، وبعدها لما امتد الحزن بقية الفصول لم يعد فارقًا نحن في أي شهر أو موسم. أنا جاهل بالجغرافيا والتاريخ قصدًا، لأن القلق يأكل كل شيء والحزن يهضم جيدًا. كنت أظن حين أعطيكِ كل ما لديَّ أني غلبتُ مسافة زينون الأيلي الشهيرة. الواحد يتعلم بثمن، لكن بعد انقطاع الخدمة. وموظفو خدمة العملاء يتكلمون جيدًا وبلباقة لأنهم يعرفون أنه ليس بيدي شيء. كنت أتمنى أن أكرههم، لكني عارف أنهم غلابة في أنفسهم وليس بيديهم شيء أيضًا، فكرهت نفسي. مشكلتي الأساسيّة مع قسوة العالم يا ليلى أنها تجعل من الحنان الرهيف، الفردي الشخصي، شيئًا بشعًا، قسوة لا متناهية مفصومة. تخيّلي مثلًا صورة طفل ممزق أشلاءً، أي نوع من الحنان والمشاركة تبدينه لنفسك بعدها؟ مشكلتي مع قسوة العالم أنها تبتلع مآسيّ الشخصيّة وفرديتي وترميهما في محيط من الدم والفزع.

كنا ثلاثة. يداعب خيالنا مستقبل في المجال الديني، محتارين كشباب يافع بين الحياة "العامة" والحياة "الإكليروسيّة"، الجميع يراني بعيون المستقبل قسيسًا كاثوليكيًّا برداء أسود من فرط عاطفتي الدينيّة. كنا نحاور بعضنا ونتخيل بعضنا رعاة أو رهبانًا، ونتناقش في "إرادة الله واختيار الإنسان" و"كيفيّة سماع صوت الله في حياتنا". كنتُ

مأخوذًا بين كتابات القديس أغسطينوس وتيّار دي شاردان وكتابات الرهبان اليسوعيين، وقارنًا شَغِفًا للرسائل البابويّة الفاتيكانيّة وسير معلمي الكنيسة، أفكر بشكل جدّي في صورة حياتي وأنا راهب يسوعيّ أجوب العالم مبشرًا بكلمة المسيح على المنهج الإغناطي؛ أدرس الفلسفة في فرنسا، اللاهوت في لبنان، علم النفس في أمريكا؛ أصرخ في الناس بثقة أن يستفيقوا من ثباتهم الروحي وحياتهم الراكدة. أخدم المعاقين والمرضى والمشردين في أنحاء العالم وأساعد الجياع والمحتاجين والفقراء في قلب إفريقيا. في تلك الفترة كنتُ منقسمًا برغباتي التقويّة النظاميّة الشديدة، ورغباتي البوهيميّة الفنيّة، أجلس على فراشي في حيرة بين التصور الذهني للصوفي المسيحي الزاهد الصارم ذي الإرادة القوية وبين الشاعر العربيد السكران المليء بالطاقة في حانات باريس وتجاربه الجنسية غير المألوفة وتجديفه الكامل. قابلتُ صديقيّ اليوم، لم يصبح أحد منا رجلًا لاهوتيًّا، هو عمل في مجال حقوق الإنسان، بعد عمله كمهندس أجهزة طبيّة، لفترة وجيزة، والثاني رُفض من الإكليريكيّة لسبب لا أعلمه وتوجه لاستكمال دراساته العليا بالجامعة، وأنا مارستُ الفشل كاختيار حياتي لم أحدده واعيًا. مجربًا الفشل لأقصى درجاته. يمكن أن يكون الفشل بالنسبة لي نوعًا من الوقاية حتى لا أنجرف لمناطق أخرى غير التي اخترتها لنفسي، أو أني استغللتُ رفاهية الفشل رغم الثمن الفادح الذي يُدفع مقابله. صراعاتي مع أبي أصبحت بشعة.

تأجيل مواجهاتي الوجودية أصبح فادح الثمن. ما زلتُ على نفس الفِراش أتأمل ما حدث ويحدث. في سِفْر التكوين يصعد إبراهيم إلى أعلى قمة الجبل مع ابنه الوحيد لكي يقتله بكامل إرادته الحرة؛ ابن فرحة شيخوخته وأمله لامتداد سيرته على الأرض. هكذا، بداخل قرارة نفسه، يعرف أنه بفعله الوحشي اللاعقلاني هذا، يقتل أمله الأخير. السِفْر لم يكن راديكاليًّا بما يكفي لكي يتمم فعل الحرية المزروع في الفشل التام. في ذبح آخر سرسبة أمل في عيون فتيّة على المذبح العالي.

بـــاريـس 6

تعطل نظام التدفئة الرئيسي، قامت تسنيم من السرير كي ترتدي تشيرتًا قطنيًّا. كانت بجذعها الطويل تبدو كقطٍّ فارسي ممشوق القوام. سألتني وهي تداعب صدري العاري إذا كنتُ قد حسمت أمري. فقلت إنني فكرت في الأمر وإني لا أريد تفوت تلك الفرصة. وأن دورا تنهار ولا يمكن فعل أي شيء. سألتني منذ متى أعرف دورا. لم أرد. قبلتها على فمها. قلت إني أحب دورا، لكن بشكل مختلف. - كما تحبين قطك العجوز الذي تعرفين أنه سيموت قريبًا. - هل تؤمن بالله؟ - لا، أنا لا أؤمن بالآباء الفشلة. ضحكتْ وتدحرجتْ على السرير، ونظرت إليَّ وهي نائمة على بطنها وتفرد ذراعها اليسري تحت رأسها. - تعرف، لو كنت مكان الرب لكنت صنعت أجنحة للبشر. إنه أمر بائس أن لا نملك أجنحة نطير بها. شبّكتُ أصابعها الممدودة، أصابعها الطويلة الرفيعة واقتربت منها: "لكني جعلتك تطيرين منذ قليل". ضحكت مرة أخرى ضحكة عالية بملء فمها وقالت بصوت إغوائي مدلل: لكني أريد الطيران مرة أخرى، تلو الأخرى، تلو الأخرى...". مررتْ أصابع يدها اليمني على شفتي فعضضتهم. كانت تسنيم تعرف أسرارًا شرقيّة لا عاشقة في باريس تعرف عنها شيئًا، ورغم حرارة الغرفة الآخذة في البرودة إلا أننا كنا نشتعل أكثر فأكثر. كان لديها طريقة في ضم قبضتها خلف ظهرها أثناء الجماع مثلما تفعل دورا

جعلتني غير مستريح. إلا أنها على عكس دورا حين تشعر باللذة لا تغلق عينيها بل تفتحهما أكثر وتنظر إلى عينيّ مباشرة.

تسنيم بتمثيلها حقيقة العالم، كانت ترياقا باكستانيا للسم الفرنسي الذي سرى في جسمي طويلًا. حكت لي عن المآسي وويلات الخراب والدمار التي عايشتهما في طفولتها ببلدتها الفقيرة، وكيف أن الإسلاميين دخلوا قريتها وقتلوا والديها أمام عينيها وذبحوا إخوتها الذكور واغتصبوها وهي لا تزال في العاشرة من عمرها. وكيف أن إرساليّة يسوعيّة هناك أنقذتها من مصيرها المحتم أن تصبح عبدة أو تقتل بعد استهلاكها. نقلوها بطريقة سرية إلى تولوز في ملجأ راهبات يسوع الصغيرات، وأدخلوها مدرسة داخليّة بعدما عمدوها وأعطوها اسمًا مسيحيًا، لكنها تمكنت من الهرب حين وصلت لسن الخامسة عشر إلى باريس واسترجعت اسمها الأصلي. تسنيم. كانت تعمل في مهن صغيرة كخادمة ومنظفة وراقصة تعرّي وبائعة هوى لكي تستطيع البقاء حيّة تحت سقف. أخبرتني أنه لم ينزاح من أمام عينيها للحظة هدفها أن تعيش سعيدة تفعل ما تحبه. تريد تسنيم أن تصبح نجمة مشهورة في هوليوود، قالت إن فرص أن يراها أحد خلال عرض المسرحيّة في أمريكا كبيرة، بل بوابة ذهبية لدخول هذا العالم. الحرية والمال والشهرة. سألتها إذا شعرت مرة أنها تريد أن تكون شخصًا آخر. شخصًا غير الذي تكونه دومًا. قالت بحسم: لا، لا أريد أن أكون شخصًا آخر، أريد أن أكون أنا، وأن تكون أنت معي. صارحتها

أنني أحيانًا أحلم بأني طالب جامعي مصري سمين وحزين. ضحكتْ بهستريا حتى إن النزيل في الغرفة المجاورة طرق على الحائط بعنف صارخًا أن كفى ضجيجًا وصراخًا وارتطامًا وصريرًا، فهو لا يستطيع النوم. شتمته وصحتُ إذا كان يريد النوم فعليه ألّا يذهب إلى نزل وضيع كهذا بجدران من الورق وضحكنا مرة أخرى. أخبرتها أني شعرت هذا الشعور لأول مرة حين سمعت تسجيل في محل موسيقى لمطرب عربي يدعي موهمد أبدواب، من مصر تقريبًا. قالت إنها ليست متدينة لكنها تعتقد أن لنا جميعًا روحًا واحدة تسير في أبدان مختلفة. قلت إن هذا من أسخف الأمور التي سمعتها في حياتي. فإذا كنا من روح واحدة فكيف نقتل ونخون ونحطم بعضنا؟ وكيف بعضنا سعيد وبعضنا حزين؟ وكيف روحها نفسها تقتل والديها وتذبح إخوتها وتغتصبها وهي طفلة؟ فكرت قليلًا ثم قالت: نعم، صحيح. لكني أريدك أن تغتصبني الآن يا روحي. وتعالى الصراخ والضحك وطرق الحوائط مرة أخرى وأخرى وأخرى.

بعدها بأيام كانت دورا تصرخ كالوحش الجريح في شوارع باريس صلعاء الرأس تمامًا.

23

لوقتٍ طويل انتظرت الذكر الآخر الذي سيجيء ليخصيني. توقعت قدومه من كل الجهات. لكنه قدم من أسوأ الجهات شرًّا وأكثرها مباشرةً. أخذ مكاني ومكانتي وحرمني من الجماع. محا اسمي وهمسي ورائحة عرقي واقترابي ومسكة يدي واحتضاني وضحكي الذكوري الضاج وحضوري المهيمن. لمعةُ العينين نفسها: كيف تلمع لشخصٍ غريب تمامًا هكذا؟ منذ بضعة أشهر، لو كنتِ نظرتِ لأحد، أو أحدًا ابتسم لكِ، كنت سأتضايق وأثور - الآن، تتمرغين في حضن شاب غريب، وتضحكان، والمفترض حتى أن لا أعلق بيني وبين نفسي. في النهاية لست قادرًا حتى أن ألومك، بل أكره نفسي فقط.

حين رأيت صورته صدمتُ. صدمة مصحوبة ببعض الراحة المُذلِة لا أعرف سببها. ضحكتُ بصوت عال. الصورة مصطنعة البهجة، حفل خطوبة عائلي تجلسان فيه كفردين متخلفين من الطبقة الوسطى - العليا على كنبة صغيرة ملتصقان ببعضكما. رفيع الجسد بذراعين مفتولين قليلًا. هناك أتب خفيف أعلى ظهره. غليظ الملامح. أعرفه. إنه شاب متفوق معنا في الكلية. أمامه مستقبل باهر كمهندس مغرور يقرأ لأحمد مراد ويوسف زيدان وأحمد العسيلي وعزت بيجوفيتش ويعتقد أنه مثقف وملك معارف الدنيا لأنه يعرف حكم الشرع في التيمم وشروطه كما يعرف مراحل تواصل

المعلومات بين الأقمار الصناعيّة والمحطات الأرضيّة. أما أنا فلا أثق في أي مجموعة من الصور أو المشاهد كل من بها نحيف. بالفعل الحب خطير جدًّا يا ليلى: فهو يعني أن سعادتك معتمدة على شخص هو ليس أنت. مثّلوا بجثتي حتى طلع الفجر والعصفور صوصو (صوصو).. قلت بصوت عال جدًّا بلكنة فلاحيّة في غرفتي: رِبنا يِهنِي سِعيدْ بسْعِيدة، فصاحت أمي ساخرة وهي تمر على باب الغرفة: ابني أتجنن الحمدلله.

قابلت زميلي العزيز في اليوم التالي. قصير كالحياة. أقرب إلى قزم إن لم يكن قزمًا فعلًا. يبتسم ابتسامة مندوبي المبيعات اللزجة الخاصة به، ويقول إن الفتاة التي اسمها ليلى قد أصبحت تعطينا تلك المادة. وهذا يعني تظبيطًا طوال الترم في الحضور والدرجات والأسئلة الخاصة الإضافيّة. قلت له كان العِلق نفع نفسه. استفسر عن مغزى التعبير، فقلت إني أعني لو كان يفرق معنا المعيد لنجحنا منذ زمن طويل. هز رأسه في موافقة وأسى عميقين فصعب علي لفظاظتي معه. أضفتُ مخففًا حدتي أنه على حق، ربما يعني هذا دلعًا لنا بعد كل تلك السنوات، خصوصًا أننا أصبحنا عجائز وذاكرتنا ضعيفة. ضحك كمندوب مبيعات يسترضى مديره. يدور في خاطري أحيانًا أني أحب أن أطيل الوقفة معه لأني أحب مفارقة حجم جسدينا المتناقضين أمام بعضنا؛ مفارقة هي الدليل الدامغ على أن الذل لا يعرف كبيرًا ولا صغيرًا.

غضب داخلي يعمل كحطب مدفأة أو محرك قديم، أتمنى الاحتفاظ به. لا يضايقني أنه أخذ جسدك - كس أم جسدك يا عزيزتي - لكن أكثر ما يؤلمني أنه أخذ مني ضحكتكِ. - ألو. أنا آسف لإزعاجك ، لكنك لا يمكن أن تتزوج ليلي. لا؟ - ألو. ليلى خادعة ومريضة. لا يمكن أن تتزوج مريضة مخادعة. كما أنها شرموطة. تسمعني؟! شرمووووووطة! - ألو. ليلى قتلتني وسوف تقتلك. لا يمكنك الهروب من مصيرك. أعدها إلي .. - ألو. ليلى.. أحبك!

تلقباتك المزاجيّة والشخصيّة الرهيبة. كأنك تتحولين لأشخاص مختلفين آخرين. فرحة.. حزينة، حزينة.. فرحة، قلقة.. مقتحمة، متطلبة.. نوستاليجية، هشّة.. قاسية، حنونة.. شرسة، عنيدة.. طيّعة، تكرهين نفسك ونرجسيّة. كل شيء ببساطة بالنسبة لك دليل على قذارة الدنيا وقذارتك. هذا الإحساس عديم الشفاء بكراهية الذات التي تعزينها جدًّا. مع ذلك كل الناس تعرف. لو هناك أي شخص كان يستطيع أن ينقذني، كان ليكون أنت. أريد أن أهاتفك الآن في قلب الليل فقط لأقول لك، لأعلمك: أعلنوا في الأخبار البارحة أنهم وجدوا قطارًا تائهًا بعد ثمان سنوات من الاختفاء؛ فجأة كومة الحديد وجِدَت من لا شيء. كان منظره حزينًا، لا يشمل فرحة الإنقاذ. تراب وحديد كثير كأنه شرب يأس الانتظار ونام مغطى بأحلام الصحراء.

أشعر بالألم مثل المُطلَّقين حديثًا وأود سؤالك: هل تحبينه أكثر مما أحببتني؟ هل أنتِ سعيدة معه أكثر مما كنتِ سعيدة معي؟ .. أحيانًا أظن أن الشيء الوحيد الذي أبعدني عنك هو المرض. "أكثر شيء شاعري في الدنيا هو أن لا تكون مريضًا" يقول تشسترتون. مرضي هو عجز الفرد أمام ما يحبه. يصعقني التشابه يا ليلى بين البغض والمحبة، خصوصًا البغض والمحبة العميقين؛ هل لاحظتِ أنك لا تنفكّين تفكرين في الشخص الذي تكرهينه، تسمعين صوته يعلّق ويتفاعل ويعيش داخلك، ترين الدنيا من خلال عينيه، والأكثر ألمًا أنك ترين نفسك بعينيه. الكراهية مثل الحب علاقة صافية وقوية. أنتِ تكرهين هذا الشخص لأنه أصبح قريبًا منك، قريبًا من ذاتك الداخلية العميقة، وهو الأمر غير المحتمل، لذا تنتفض هذه الطاقة الطاردة ناحيته. لم أعد أرى الأشياء إلا بعينيك ونفسيتك القذرة المريضة. تلك النظرة العدمية التي تقتل كل شيء في موضعه. تلك السخرية من أمور كنت أحبها دومًا. أنظر للأشياء نظرتين. نظرتكِ ثم نظرتي التي تخصني. أقول لنفسي ما كان هذا يعجبكِ. هذا كنتِ ستعلقين عليه تعليقًا ساخرًا مؤلمًا. أنظر بعينيك بغلٍّ لا نظير له. أجرش كرهي لكِ وأشتمكِ كلما علقتِ تعليقًا قذرًا على مشهد إنساني جميل. كل أفلام البورن التي أشاهدها أتخيلك مكان المؤدّية وأتخيل نفسي أشقك نصفين. كل عنف فيديوهات الهاردكور كانت موجهة ناحيتك. خيالاتي الجنسية فسَدتْ كلها؛ بعد أن كانت تعبيرًا عن الحنان

والحب أصبحت كلها غضبًا واغتصابًا وانتهاكًا وممانعة دائمة. أنا دومًا في جلد من أكرهه.

أريد أن أهاتفك لأعلمك أيضًا: بالأمس حدث شيء غريبٌ. شعرتُ بالحزن الذي أعانيه يوميًّا، لكن بدون لذعته القاسية. كان حزنًا جميلًا. لا زال حزنًا، لكنه جميل. لا أقدر أن أشرح الأمر. كان حزنًا يحتوي على عمق ما. حزنًا وجوديًّا. شعرت فيه بثقل الحياة، عبء العيش في هذا العالم، وعبء أن أكون أنا، وبشكل ما تقبّلته. لم يعد لي إيمان لكن اعتبرت هذا الشعور تجربة روحية. ماذا أفعل هنا؟ لماذا أمر بما أمر به؟ لم تضيع سنوات عمري هكذا؟ ولم العالم واسع ومدمِّر هكذا؟

في النهاية نحن ننهزم بحقٍّ حين يكون خصمنا ضعيفًا. لماذا أنتِ غاضبة هكذا؟ أين دور الحب في منح الدفء والراحة؟ لماذا تكتبين هذه الكلمات الباردة كالثلج والقاسية كالحديد الخشن على حساباتك الشخصية؟ نعم أتلصَّص عليكِ. قولي لي برغم ذلك، أين العزاء الذي يمنحه القلب المُحب يا بنت الشرموطة؟!

24

بعثت لكِ برسالة نصيّة بالإنجليزيّة: لا أقدر على المجيء اليوم. اكتبي لي الحضور. رددتِ قبيل معاد الدرس بدقائق بالإنجليزيّة أيضًا. لا أقدر. سوري.

أحضر السكاشن في صمت. لا تنظرين إلي مطلقًا. كأنك غاضبة علي. أثارني هذا بشدة. كان كل فصل هو ساعة ونصف من التخيلات الجنسية المريرة والعربيدة. أريد السعادة عن طريق قرص، قرص أزرق، قرص زهري، قرص أبيض. أيًّا كان لون القرص. الزاناكس رفيق دربي الذي يثير غضبي المكتوم ونعاسي. أحب شكله مثل فَرج زهري صغير، بشق عرضي رفيع في الوسط.

عرفت أن تلك المادة قد رُفعت من جدولي الشخصي - ومن زميلي مندوب المبيعات القزم- بسبب تجاوز نسبة الغياب المحددة من قِبل الجامعة وهي 25% من عدد الساعات الدراسيّة على مدار الترم. كان الحل الذي اقترحه أن نذهب إليك كي تكتبي رسالة خطيّة أننا حضرنا في أيام معينة أو تعدّلي بنفسك في جدول الحضور على السيستم. ذكّرته دون سبب كيف كنا نلعب "إكس أو" أثناء المحاضرات والسكاشن وضحكنا. ذهبنا إلى مكتبك. وقفنا مثل رقم عشرة. كأطفال صغار نترجى من الأبْلّة أن تعفينا هذه المرة. قلتِ بوجه صارم

جعلك أكبر سنًا: أوك. والتفتِّ إلى حاسوب الجامعة المفتوح أمامك على المكتب. نظرتِ إليه وسألتيه عن اسمه. ثم جاء دوري فسألتني عن اسمي..

مراحل تأثير قرص الزاناكس جرعة 50 ميللي أو أكثر: الهدوء - الدوخة - التنبه - الهدوء والتعب - الحزن - الثقل والنعاس – الغضب وبعض الصداع. أقول لكِ، رغم ذلك، الزاناكس حضن أم. صدمة من صدمات حياتي الكبيرة حين وعيت بصورة واضحة وتامة، أني لست الابن المفضل عند أمي. أي أني لست الشخص المفضل عند أحد في الدنيا، وأن الشيء الذي يعطيني معنى وقيمة في الحياة تكسَّر وتبيّن زيفه. يمكن هذا هو السبب وراء كل تناحراتي الطويلة مع شقيقتي الكبرى. صدمة يمكن تلخيصها في أنني لو مت ستحزن أمي لكنها ستكمل حياتها، وأني شخص مثل بقية المليارات من الأفراد في الدنيا ولا أفرق عنهم شيئًا. رغم زواج شقيقتي وسفرها إلا أنها بقيت مستحوذة على وقت ومشاعر وأعصاب أمي. ظهر لي قدرة الحبل السُري أن يمتدَّ عبر كل هذه الأميال والبلاد. كان مدرس "المايكرو-موجات" وأنا في سن الرابعة والعشرين يقول لي "سيكاهالا!" كأني طفل صغير. أبيع عضوًا من جسدي كي أقتلك يا ليلى، أقتلك لكي أرجعك عضوًا في جسدي، فأنا أمشي بفراغ مميت، فراغ صنعتيه بنفسك ولم يعد بإمكانك الآن أن تملئيه.

أحاول أن أتصرف باعتدال مثل مجنون لا يريد أن يأخذ جلسة الكهرباء. أبقى جالسًا على المقعد في الفصول والمحاضرات مثل طفل لم ينهِ واجبه بعد ولي ذاكرة مرضى يتشاتمون في مصعد. مفارقة في اللغة العربية أن "عليل" تعني مريضًا وفي نفس الوقت تعني منعشًا ولطيفًا. هل نحب المرض؟ لا أعرف إن كنت أحب مرضي لكن يمكنني وصفه في كلمتين: روحي تتعفن! الزمن والموت والذكريات السيئة أشياء لا تؤلم إلا حين تفكري فيها. هاه. لا شيء يستحق الحزن سوى الرغبة في الرحيل إلى البحر. لم أر البحر منذ سنوات طويلة ولذا أقول ضاعت أيام شبابي. لا شيء يرجع لي أيام شبابي، كما أن لا شيء يعوض فرحتي بالبحر. يتحول حزني إلى غضب حين لا أقدر أن أمسكه وأضرب به أقرب زجاجة كلام. في قصة أطفال ما سأخترعها، سأبكي شوقًا للبحر حتى يخرج بحرٌ من ماء دموعي فأعوم فيه فرحًا. هل شرحت لكِ قبل ذلك ماذا يحدث لي أثناء نوبة الفزع؟ على مدار السنوات تتغير شكلها: مخاط من الأنف، سيولة في الأمعاء، ألم في الأطراف، برد، عرق بارد، رغبة في القيء، تحتدُّ الحواس كلها إلى درجة مؤلمة، كل صوت وكل ضوء وكل رائحة وكل حركة مضروبة في مئة ضعف، أثناءها تشعرين بالإفرازات من أسفل خلف أذنك إلى المخ، من المخ إليه، إلى الرقبة إلى الأكتاف إلى بقية عروق الأطراف، تشنّج، وإحساس بأن التفكير اختلف ومحبوس بشكل غير مفهوم؛ وعليكِ تسمية الأشياء من جديد؛ أنا في الحمام، وهذه

غسالة وهذه علبة كبريت وهذه فرشاة أسنان وهذا معجون ... أو هذا شارع وتلك عرابات وهذه عواميد إنارة وهؤلاء بشر يمشون في سلام... هؤلاء طلبة جالسون على مقاعد في قاعة مكيفة يستمعون بتركيز وملل إلى دكتور المادة. اثنان يتحدثان إلى بعضهما وواحد يدردش على الهاتف. أعدُّ من 1 إلى 20 وأجمع وأطرح أرقامًا عشوائية وأمسك الآلة الحاسبة وأحسب بسرعة متزايدة.

في الصباح، أخفض عدد الأشياء التي أخاف منها إلى شيء واحد، ثم أبدأ في السعي لتجاهله، هكذا اتخطى نوبة الفزع الصباحيّة. مما يذكرني بفيلم تسجيلي تقول فيه راقصة شعبية شابة: "أنت ما تعرفش التفكير اللي معايا دلوقتي بيعمل فيا إيه.. دا تفكير ابن كلب.. أنت ممكن بس الكلمتين اللي أنا بقولهملك دلوقتي أنت مش مصدقهم.. لكن أنا اللي بحس مش أنت". سأكتب رواية واسميها: "كيف قتلتك في اثني عشر يومًا بدون مسكنات فقط لأراكِ تتحللين بشكل غير سيمتري بدلًا من سيميتريّة ألمك؟" أو "مؤخرات الحزن. أثداء الألم". ملحوظة عابرة حزينة: لا يُعرف من يحب الآخر أكثر إلا عندما يفترقان نهائيًّا. أرأيتِ صور مراد عثمان المصور الروسي؟ شيء غريب جدًّا حين ترين كل شيء تريدين فعله موجودًا في حبة صور. صمتك المفاجئ كان لا بد أن يكون جريمة بقوة القانون.

الشخصان اللذان معي على الطاولة يتحدثان عن كانط في المقهي المكشوف - كأن مكشوفًا هذه ليست كافية لتسبب قلقًا لي - حين مررتِ تتحدثين في الهاتف. أو هذه ليست أنتِ. الظهر نفسه وطريقة المشية المختالة الصبيانية. ساعتان في الكوربة بعد غياب وترى وجوهًا لا تتوقعينها البتّة. ثبات الهاتف على الأذن، ربما لطرد المتطفلين من حولك أثناء السير. السرعة المتعجلة نفسها تقريبًا. بروز الشَعر امتدادًا لقصر القامة. صاحب المقهى نزع عنا المظلة وأنا أصبحتُ وَحشًا إلى نفسي بعد الحجرة المغلقة للشك الديكارتي. ارتباكي هذا الذي أحبه: الحضور الواقعي للخيال المَنفي. ربما كانوا على حق في النهاية؛ المعرفة مُستحيلة ومرعبة وجميلة. الخيانة: أن يكون هذا ظهرك فعلًا.

بـــاريـس 7

قبيل دخول الصباح كنت أفتح باب الشقة. كانت دورا نائمة؛ ممددة عارية على الكنبة وبجانبها ملقي على الأرض زجاجة نبيذ فارغة. داليا لا تزال موجودة بالشقة مستيقظة تجلس إلى الطاولة بكامل ملابسها تعبث باللابتوب الخاص بدورا تشرب في كأس كبير بعضًا من الويسكي. شيء ما تنبه داخلي كذيل عقرب يقف عاليًا فوق ظهره. قالت دون أن تنظر إلي وهي لا تزال تعبث على الجهاز: بونجور. رددتُ التحيّة. خلعت معطفي الجلدي ورميته على المقعد المجاور للكنبة التي تنام عليها دورا. - ويسكي في الصباح، إيه؟ يبدو أن الفتيات حظيا ببعض المرح ليلة أمس. ردّتْ أيضًا دون أن ترفع وجهها عن اللابتوب: نعم. لن تستيقظ قبل الليل. بعد فترة صمت تلت كنت قد حسمت أمري. ألقيتُ سؤالي وأنا أقف خلفها تمامًا: تعرفين إدفارت مونك؟ يبدو أنها شعرت بشيء ما في صوتي أو الطريقة التي ألقيتُ بها السؤال، أو تنبهت بقربي المفاجئ، فألتفّت بجذعها كاملًا ونظرت إلي قبل أن تجاوب وهي تصبغ وجهها المجهد بالمرح الناعس. - بالطبع بالطبع.. أن.. - يقولون إنه جعل زوجته تتحدث وترافق رجالًا آخرين لصنع (غيرة)..هل رأيتِها؟ ترددتْ قليلًا ثم قالت في حذر متشكك: - نعم.. بالطبع.. بال - رهيبة!، صحت بها وأنا أمسك شعرها بعنف وأجذبها من على الكرسي لتقع على ركبتيها. اقتربتُ حتى

لصقت فمي بجانب فمها. همست من بين أسناني: نعم، خطيئتُكِ أنكِ حتى في عملك الإنسانى لا إنسانية، عديمة الإحساس. عاهرة تنظر للبؤس من الخارج تحاول اكتشاف جماليّاته في وحشية فجة. تستلذين بأن هناك من يعانى مثلك، وتنتشين أن نظريتك حول أن العالم بقعة خراء عبثية تتأكد. حاولت أن تمسك بذيل حصاني دفاعًا عن نفسها لكني جررتها وضربت رأسها بالحائط ففقدت توازنها كليّة وسقطت مثل كومة قش. أخذت أركل فيها بكل عزيمتي، لا يسيطر عليَّ سوى فكرة أنها كومة خراء لا بد منإزاحتها من أمامي بأي ثمن. كانت تحاول الدفاع عن نفسها عبثًا بذراعيها المرفوعين أمامها. ثم في خبث يليق بثعبان مثلها ضربت بعنف إصابة جانبي الأيمن. انثنيت على نفسي في ألم حارق. حاولت الإفلات. مسكت ببنطالها الأسود فانسحب لأسفل قليلًا وظهر كيلوتها الشفاف المزركش. صرخت تستنجد فضربتها على ظهرها بكل ما فيّ من غل فتكومت على الأرض أمامي، وسكنت لوهلة كانت مناسبة لكي ألمّ شتاتي، وأعدت الكرّة وضربتها بقوة وعزيمة أكبر فصرخت وهي ترفع رأسها لأعلي. قمت من سقطتي وأمسكت بشعرها وسحلتها على الأرض للداخل، وبنطالها تكور حتى ركبتيها، تصيح في صراخ مبحوح، إمارات الألم على وجهها جعله معجنًا وأكثر قبحًا. روادتني رغبة ملحة في تشويهه أكثر فنهشت شفاهها حتى أصبحت أسنانها مكشوفة بلا حماية. دمٌ ينهمر على رقبتها. تلهث كالكلب وتستجدي. صرختُ: بالطبع،

بالطبع، لا تستعجلى النهاية، النهاية قادمة بلا ريب يا عزيزتي! سحبتها مرة أخرى وضربت وجهها في الأرض. تستنجد. تتوسل. لم أر في تكرار فعلي هذا أن الدم يوسع ببطء على الأرضيّة حولنا. لم أر أنها لم تعد تقاوم أو تستجدي، مرمية، كطفل مقطوع السُرةِ فشل في دخول العالم.

25

أكتبُ لكِ وقد أصبح النزول من البيت إرهاقًا وتعبًا ومغامرة غير محسوبة العواقب. سألني صديقي لماذا لا أتزوج في نفس الوقت الذي أُعيد فيه اكتشاف القاهرة كرمز وتجسيد لكل ما أكرهه في حياتي. ربما حبستي داخل نطاق محدد تجعلني أرى عيوبها بعدسة مكبِّرة: العلاقات المُشوّهة، صعوبة العمل فيما تحبين أو الكسب منه، صعوبة إيجاد مكان تعيشين فيه بمفردك أو مع شريكك، الوسطيّة المتطرفة الفارغة، الزحام الضاغط والضوضاء البشعة. كل ذلك ينبئك أن في حياتك لن تعيشي في مكان صالح للاستخدام الآدمي. وبوزي في بوز ما أمقته طول الوقت. هل يمكن أن أتكلم بموضوعيّة منطلقًا من كراهيتي؟ لا يهم. ما أمقته، ما أتكلم منطلقًا من كراهيتي له، يسبقني دومًا. القاهرة مدينة لا يمكن احتمالها إلا بالمخدرات أو الأدوية.

أفكرُ، أن كل هذا، كل هذا كابوس. وأني سأستيقظُ منه لأجد رسالتك الصباحيّة، فأهاتفك بشغف مجنون، رغم علمي أنكِ لن تردي في هذه الساعة الصباحيّة المبكرة. لكنكِ سترديـن. وسأسمع صوتك الناعس الخالي من النسكافيه يرد عليَّ وأنا أبلغك أني أحبك ولا أريد أن أحب أحدًا غيرك. ستتفاجئين وتتساءلين لم/هل أبكي؟ حينها، لكي أشرح لكِ، فعليّ سرد قصة الدرويش الذي قال "قادر أن يكوِّر الدنيا في

قشرة بندقة" والمُصلي الذي لم يؤمن إلا بعدما حَمِل وأنجب بنتًا وولدين. ومع ذلك، لن تفهمي شيئًا إلا بعدما أن أضمكِ وأبكي أطفالي الذين ماتوا، ورائحة جثتكِ تفوح في أنفي عبر خريطة الزمان والمكان دون توقف.

فقدانك مثل العاهة، أقول لكِ. ربما يومًا ما ستكفين عن الظهور في أحلامي، وأنا سأتوقف عن النواح، وربما حينها سأربط في عقلي بين الحدثين. لكني سأكتب لكِ، بسبب الأدوية، وأنا دائمًا نصف واع نصف مرعوب.

أكتب لكِ من أمام نوبة فزع. مراسلك من الجحيم.